معتز عرفان

رواية قصيرة

الفيلسوف الذي قتل قطته

دار عرفان للنشر

معتز عرفان

الفيلسوف الذي قتل قطته

دار عرفان للنشر

الفيلسوف الذي قتل قطته

"كنت قطته المدللة، فتاته المفضلة، طالبته المميزة، حبيبته الخفية، وصديقته التي أتلف براءتها بيده. لم أتوقع ما صدر عنه ولم أعرف حلا للتعامل مع ما عرضه على وما قدمه إلي، فسار السيناريو دون توقعات ووضعت علاقتنا الآثمة في السياق، ذلك السياق الذي جمع بين السكون والاضطراب."

قطة الفيلسوف

-1-

تجردت من ملابسي التي عفا عليها الزمان، قميصي الوردي، تنورتي السوداء، حمالة صدري وردائي التحتي. وقفت أمام المرآة أتأمل حالي وأجابه بواعث اضطرابي ومتلفات استقراري. وبعد ذلك، توجهت إلى المغطس، نزلت إليه في عجلة من أمري، وقضيت وقتا طويلا بداخله دون أن أعبأ بالعالم الخارجي، محاولة استجلاب بعض أحوال الطمأنينة والسكون، كما هو الحال مع كل البشر.

قنبلة نووية قادرة على تحطيم كل شيء، معارك قائمة وصراعات دائمة، بواعث اضطراب ومشتتات أفكار. ذكور وإناث في حالة من التقاتل من أجل أن يسمح لهم ولهن بالتعبير عن الحب، ورجل عجوز يتأمل مراهقة صغيرة ويقدم إليها بعضا من الحلوى.

تسعد الجميلة بما يقدم إليها، تأخذ الحلوى مشمولة بحالة من البهجة والغبطة، لكن الاضطراب سرعان ما يتسلل إلى جسدها حينما يقترب العجوز منها ويتأملها بعينيه، مما يؤدي إلى إتلاف بيئة النشوة وإفساد عناصر اللهفة.

لم تعد سيجارتي قادرة على منحي ما كانت تعطيني إياه في الماضي، نال مني التكيف وسيطر على عقلي التعود، ورغم ذلك، ها أنا أقحمها في فمي، مصممة على استخلاص كل ما يمكنها أن تزودني به.

إنها "الحماقة البشرية"، هكذا كان يسميها، وهكذا كان يرددها. فلا يمكنني أن أنساه و لا تسمح لي تجربتي بأن أتخلص من اللحظات الي جمعت بيننا، تلك اللحظات الي صمم على أن يسرقها من الزمان، محاولا أن يتجاهل حقيقة المسار.

شباب يقعون في حفرة الفسوق والزنا، وآخرون يتنقلون بين مقدماته، ملائكية تتلف وشيطانية تقحم، مهدرون يبحثون عن الهروب وعقول متمردة بوضوح، رغم نيلها كل ما تتمناه وترغبه.

فلاسفة يتقاتلون ويتجادلون حول سر الوجود، رجال يعتقدون بأن المعني موجود في العالم الدنيوي، تراب يلتهم الكثيرين وأحلام تتطاير مصحوبة بأنين، وساذج يعتقد بأن امرأة قادرة على تخليصه من الورطة.

ساذجة تسكن المغطس، تتأمل جسدها وتقارن بينه وبين أجساد صديقاتها، تراودها أفكار عبثية، وتسيطر عليها ذكريات غريبة جمعت بينها وبين فيلسوف غريب جمع بين العبثية والإيمان، فنظر إلى الدنيا على أنها بلا معني ونظر إلى الآخرة على أنها المكمن الوحيد للمعني.

خرجت القطة من المغطس مبللة، ناولها رجل غريب المنشفة، جاءتها أمها في سرعة تامة، منحتها حضنا دافئا، لكن حضن الأم يختلف عن حضن الشريك، فالقطة ترغب في حضن شريك، رغم أن حضن أمها أكثر أمانا وبريقا.

لكن القطة في الشقة وحدها، فكل ما يخطر ببالها لم يعد ذا بريق، وكل ما كان يجذب أنظارها، أتلفه التعود والافتقار إلى من يهدئ من تأثيرات هرموناتها.

تأملت صغر حجم صدري فانزعجت، نظرت إلى خصلات شعري فتبرمت، أحسست بأن لون بشرتي لا يناسبني، وتخيلت رجال العالم أجمعين. لكن الواقع يطالبني بالانخراط دون أن أعبأ بالمتغيرات، والوجود يشعرني بأن القطار يجري غير ملتفت إلى المترنحات.

لا أعرف حقيقتي، أتساءل عن ماهيتي، شرسة أم طيبة، سلسة أم ماكرة، مبهجة أم متبرمة. أصف نفسي بالمنتمية إلى الحركة النسوية، ولا أعرف شيئا عنها ولم أقرأ قط عن تاريخها.

أخبر نفسي بأن المال ليس بضروري من أجل الزواج وأن العاطفة كافية عند التحدث عن العلاقات، لكنني سرعان ما أجد الأمر مختلفا في كل مرة أحاول فيها أن أرتبط برجل.

تراودني أسئلة غريبة حيال طبيعة الرجل، وأتساءل إذا كان يرغب في المرأة من أجل روحها أم من أجل جسدها. أتعجب من تجربتي مع فيلسوفي أو بالأحرى أستاذي، وأتساءل إذا كانت قد أتلفت حياتي ودمرت تجربتي ومنعتني من التعرف إلى رجل يرضيني ويمنحني كل ما أريد، بعد أن شهدت كل ما هو غريب.

من الضروري أن أتوقف عن التفكير، من الضروري أن أتخلص من كل ما لا يفيد، سأرتدي ملابسي، سأخرج إلى الهواء، سأتنزه في ثبات غير عابئة بالمشتتات.

-2-

لن أخبركم بكل شيء، لن أمنحكم كل التفاصيل، لن أتحدث عن أبي وأمي وأخي، ربما سأتحدث عن أختي، لكنني لا أعدكم بالكثير، سأتحدث عما أرغب في التحدث عنه، سأكتفي بسرد ما أرغب في سرده، فليس من الضروري أن نتحدث عن كل شيء، وليس من المفيد أن نسرد ما لا يثمر ولا يثري.

استمرت علاقتي مع الفيلسوف لعدة سنوات، مما جعلني عاجزة عن التعرف بسهولة إلى شاب. فكيف يمكنني أن أحصل على شاب تقليدي في الوقت الذي لدي فيه فيلسوف، فيلسوف كبير؟!

كان أستاذا جامعيا مرموقا، كان يدرس الفلسفة وكانت الفلسفة حياته ومصدر استمراره، فنقل فلسفاته إلى الكثيرين، ونقلها إلى ممزوجة بحب دافئ مدهش، فأحسست بأحاسيس لم أعرفها من قبل وولجت منطقة محرمة لسذاجتي وحماقتي، حماقتي التي اقترنت بنشوة عارمة وتجربة خالدة، تجربة رسخت في ذهني، فصار يستدعيها كلما أحب ويركن إليها كلما أراد.

لا يمكنني أن أنسى نظراته إلى حينما كان يمنحنا دروس الفلسفة في المدرج الكبير بالكلية، كانت نظراته غريبة عجيبة، ظننتها تخيلات في بادئة الأمر وتأكدت من صحتها مع الوقت، بعد أن أدركت أن علاقته بزوجته لم تكن على ما يرام، وأن أخلاقه لم تكن كما كان في الحسبان.

لعين، منافق، وغد، كلها صفات منحتها إياه بعد أن انتهت العلاقة، وبعد أن أدركت أنه قد دنسني وأفقدني براءتي التي كنت أتغنى بها.

إنه الفضول، نعم، الفضول، ذلك المسار الذي يأخذ المرء إلى الكثير من المناطق المحرمة، حتى يعتاد زيارتها ويألف رائحتها. لكن الغريب في الأمر، يتمثل في الحقيقة، تلك الحقيقة التي تظهر بغتة لتتلف التجربة وليصاب المرء بسهم في قلبه، فيسير به حاملا إياه حتى نهاية تجربته القصيرة.

لا يمكنني أن أعمد إلى التعميم، لكن من الضروري أن أؤكد على أن هذا السهم قادر علي منح الإنسان الصفة البشرية، تلك الصفة التي إذا لم تمنح معتمدة على هذا السياق، منحت معتمدة على سياق آخر. لكنني أري أنه من الأفضل أن تمنح معتمدة على سياق آخر في حقيقة الأمر، بعيدا عن التعقيدات والمحسوسات.

لقد أدركت فيما بعد أن إفساد فتاة جريمة كبيرة وأن إغواء عجوز لمراهقة ينم عن خلل كبير، فربما يكون الأمر متعلقا بالبارافيليا وربما يكون ذا صلة بخلل نفسي أو اضطراب فكري نال من الرجل فجعله مجرما وبعيدا كل البعد عن الطريق السوي.

كنت علي علم بالكثير فيما يخص الفلسفة وعلم النفس، وقد ساعدني الرجل على تشكيل عقليتي الفلسفية بنفس القدر الذي ساعدني من خلاله على تشكيل هويتي الجنسية، هويتي التي ظهرت بصورة غير سوية أثرت على حياتي فيما بعد.

أتذكر تلك المحاضرة التي سيطر على فيها، فأخذني ذهني إلى خيالات غريبة وتخيلات عجيبة، فصرت أسيرته وصار سيدي، ولسني الصغيرة افتقرت إلى الحكمة ولم أعمد إلى خبرة.

-3-

Carpe diem

تلك الحكمة اللاتينية التي كثيرا ما حدثني بها ونقلها إلى عقلي الصغير، عقلي الذي كان بمثابة القدح الفارغ الذي صب فيه العديد من أفكاره التي عمدت إلى المنطقية أحيانا، والعبثية والشذوذ أحيانا أخري. أخبرني بأنها حكمة شهيرة، حكمة تناولها أحد أعمال الشاعر الروماني هوراس، ذلك الشاعر الذي تميز بكلماته الأنيقة أثناء فترة حكم أغسطس. ووضح لي أن معناها ببساطة يتمثل في ضرورة أن ننتهز الفرصة وأن نفرح باليوم دون أن نعبأ بالغد.

أعتقد أن ذكاءه قد ساعده على استخدام العديد من الكلمات والتلاعب بها وتوظيفها في سياقات مختلفة. فقد كانت كلماته بمثابة الجرعات التخديرية التي جعلتني أعبأ باليوم الذي أعيشه معه، أعبأ بالهراء الذي كان يحدث بيننا، أعبأ بالمتعة المصاحبة للجنس الآثم، دون أن أهتم بالعواقب ودون أن أمنح الواقع والفارق السني أي مساحة فكرية بأي شكل من الأشكال.

لا شيء يمكنه أن يحرر الإنسان من الخطية سوي الاعتراف بها ومحاولة عدم تكرارها، هكذا كان يقول تولستوي. لكن اللعين لم يسع في هذا الطريق بأي شكل من الأشكال، ولم يكتف بذلك بل كان مصمما على إيجاد الكثير من المبررات، تلك المبررات التي كنت أنصت إليها مجبرة، بعد أن جذبني بهيئته الأوروبية التي جعلته يبدو أصغر سنا، وقطعت الصلة بينه وبين بيئته الريفية التي ترعرع فيها.

لقد أخبرني بأن بعض الريفيين كانوا يمارسون الفحشاء دون توقف في الحقول، ووضح لي أن العشوائية الجنسية أمر معروف وأن علاقتنا الآثمة لا تمثل أمرا جديدا.

لطالما تساءلت عن حقيقة قدرته على إقناعي بكل هذا الهراء، فقد قص الكثير من القصص التي ضمت أسرارا تعلقت بأصدقائه، وكأنه لم يكن علي علم بأهمية الستر وعدم التحدث في مثل هذه الأمور. فقد أخبرني بأن الكثير من أصدقائه الذين درسوا الفلسفة والهندسة والطب والفنون والإعلام، أخبروه عن نزواتهم الخاصة وعن حقيقة أنها كانت مع العاهرات وفتيات المواخير في الكثير من الأوقات ومع بعض الزميلات في أوقات أخري.

في الحقيقة، كنت مندهشة بشدة من جراء الإنصات إلى قصصه الغريبة عن أصدقائه السذج، والغريب في الأمر هو أنه قد اعترف لي في أكثر من مرة أن كل هذه الأمور لا تمثل سوي الهراء، وأن المتعة زائفة في نهاية المطاف، وأن الإنسان واهم كبير ومغفل لعين.

وقد أخبرني بأن ما نفتخر به في صغرنا، قد نهرب منه في كبرنا، وأنه من الممكن للمخطئ أن يجد العديد من المبررات في بعض الأوقات ومن الممكن أيضا أن تغيب عنه هذه القدرة في أوقات أخري عديدة.

لقد ترجمت هذه الكلمات إلى واقع ملموس في حقيقة الأمر، فلم يكن قادرا على إيجاد المبررات في كل الأوقات، وقد أخبرني في مرة من المرات أن العائلة قد فشلت في تربية الأبناء

وأن الكثير من أبنائنا قد انحرفوا وصاروا عبيدا لشياطينهم، فعربدوا وسكروا وسكنوا بلدة الحشاشين.

أخبرني بأن القبلة تلاعب الصغير، لكنه عندما يحصل عليها، يرغب في المزيد، ويتدرج حتى يصل إلى نهاية الطريق، لكنه أخبرني بعد ذلك بأنه من الضروري ألا نعمد إلى التعميم وأنه من الأفضل أن نقسم القطيع إلى فريقين.

وضح لي أن كثرة التحدث عن مثل هذه الأمور قد تنم عن كبت رهيب أو إرضاء كبير، فمن الممكن للنقيضين أن يؤديا إلى نفس النتيجة، لكن من الأفضل أن نعترف بأن نصف متعة الأمر يكمن في التحدث عنه، ولهذا قد يشمل التحدث الجميع.

أخبرني بأن الفتاة تحب القبلات لكنها لا تحب التحدث عنها، وأن الرجال يحبون التحدث عن مثل هذه الأمور، وهو ما يثير استياءها. فتعجبت من أمره وهاجمت أفكاره، فلم أكن مطيعة في كل الأوقات، ولم أكن قدحا يسهل الصب فيه في كل مرة.

لقد اكتشفت بعد أن انتهت حالة الغفلة التي كنت أعيشها، أن العفة طريق جميل وأن الإنسان ساذج كبير وأن الخطأ وارد لكن الاعتراف به واجب. فقد تعلمت من أخطائي لكن مشكلتي كانت دائما كامنة في هويتي الممزقة، تلك الهوية الجنسية التي وضعت في السياق الخاطئ عندما ظهرت لأول مرة، فقد كان الرجل يكبرني بعقود، وهو ما أثر على شخصيتي بصورة سلبية فيما بعد.

-4-

لقد منحني سلسلة جميلة تحمل حكمة هوراس باللاتينية، وكنت أخلعها وأتأملها في كل مرة كانت أفكار المستقبل تراودني وتلاعبني فيها.

كنا نتحدث عن الكثير من الأمور الفاسقة، وفي نفس الوقت كنا نتنقل بين الموضوعات الفلسفية العديدة التي كان يطرحها دون توقف، في وجودي، وفي وجود زملائه المجانين.

في إحدى الجلسات المحورية التي شهدتها الكلية، أخذ يتحدث عن التوتر الوجودي وحقيقته، فأخبرنا بأن التوتر الوجودي نابع من الوجود في حد ذاته، وأنه من اسمه قد اشتق، وإليه يؤول. وقد تابع كلماته موضحا أنه من المعروف أن بعض التوترات قد تظهر لنا على أنها توترات وجودية، لكنها في حقيقة الأمر ناجمة عن عبث الإنسان وسوء تخطيطه.

لقد وضح أن اللجوء إلى الجبرية بمثابة المحاولة البشرية المتكررة للتقليل من وطأة التوتر الوجودي المصاحب للاختيارية. وقد تابع كلماته ليخبر الحضور بأنه من المنطقي أن نرجع الكثير من القرارات إلى اختياراتنا، لكن من الضروري أن ندرك حقيقة أن وقوع الأحداث خارج عنا، وأن هذه الاختيارات ترتبط بالأحداث والبيئات والظروف، وهو ما يجعلنا عاجزين عن الوصول إلى الحقيقة الكاملة.

حينها، خرج فيلسوف حكيم موضحا حقيقة أننا لا نعرف شيئا عن الحقيقة، لا نعرف أي جزء منها، وأنه من السذاجة أن نسعى

نحو إدراك المعرفة بشكل شامل في الوقت الذي نحاول فيه أن نلم بجزء منها. وقد أخبره فيلسوفي عن اتفاقه معه وتدعيمه لرأيه.

خرج فيلسوف آخر ممتدحا الفكر الذي قدمه فيلسوفي، وقد أخبر الحضور بأن هناك حكمة شرقية تخبرنا بأن الإنسان لا يتميز عن الحيوان إلا بقدرته على التفكير. وقد تابع كلماته موضحا أن هناك من الناس من يضرمون من لهيب تلك القدرة بداخلهم، بينما هناك آخرون لا يهتمون بها، آخرون يرفضون ما يميزهم عن الماشية.

لكنني كنت أري أن الإنسان جامع بين الأمرين، فقد كان فيلسوفي يتمتع بجزئه الحيواني بين الحين والأخر، رغم فكره العميق وذكائه الخارق. فقد مل علاقته الراقية مع زوجته، ونزل معي إلى الوحل، وقد نزلت معه إلى نفس الوحل معتمدة على حماقتي وغبائي.

لقد رأيت أن الإنسان معرض لمثل هذا الأمور، وأنه من الممكن بسهولة أن ينزل إلى الوحل، لكن الحكيم هو من يسرع بالهروب أو يكتفي بإرضاء الفضول دون تعمق وتكرار وإصرار،
والأكثر حكمة هو من ينأي بنفسه عن كل هذا الهراء.

لا يمكنني أن أنسي هذه الجلسة الحماسية، فقد بدأها بعبارات دينية عظيمة وأخري مشمولة بحكمة ورزانة، متجاهلا حقيقة المضاجعة التي تشاركناها في الليلة الفائتة، في شقته التي اشتراها من أجل ابنه الوحيد الذي لم يكن قد تزوج بعد. وهو ما أكد لي على حقيقته، وزادني حيرة ورغبة في الهروب.

أخبرني الفيلسوف في إحدى المرات بأنه من الضروري للنساء أن يدركن حقيقة القدرات الذكورية والأوهام التي تتعلق بها. فكل ذكر يتمتع بقدرة محدودة يحاول أن يتجاهل حقيقتها ويسعي نحو إظهارها بعيدا عن ماهيتها، معتمدا على كلمات عبثية وخداع أهوج.

وضح لي أن الصبيان الصغار كانوا يرسمون صورا لأعضاء ذكورية ضخمة على ممرات وسلالم القصور الملكية في بريطانيا، وهو ما نجم عن سوء فهم قاس بشأن القدرات الطبيعية، فالذكور واهمون والإناث ينصتون إلى أوهامهم.

أخبرني بأن الرجل يجلس في المقهى مع أصدقائه، ليتحدث عن قدراته وعن إعجابه بمن تمر أمامه، لكنه في حقيقة الأمر مجرد ساذج قدراته محدودة ومكاسبه معدودة.

تابع كلماته معبرا عن حقيقة أنه قد اهتم بدراسة الجنسانية لفترة مطولة جنبا إلى جنب مع الفلسفة، وأنه كان يرغب في التعمق فيها لولا أنه لم يحظ بزيارات كثيرة إلى العالم الغربي، ليتعرف على كل ما هو جديد، وليتأمل التجربة العملية عن كثب.

انتقلت معه بعد ذلك إلى موضوع الفسوق، ذلك الموضوع الذي كان يؤرقني وكنت أهتم به لكونه يشملني، وقد وضحت له أن الفاسق الذي يظهر فسقه علانية يحاول أن يبحث عن التميز بأي شكل من الأشكال. فالفسوق مرتبط بالخروج، والخروج قد

يكون مثيرا، حتى لو كان مسيئا وقذرا. فنظر إلى متعجبا من أمري، وتراجع إلى الوراء، بعد أن أحس بحجم الهراء الذي شمل حياته، وتساءل عن حقيقة إذا كان ممن أخذتهم العزة بالإثم وممن رفضوا كل بادرة تقوي عرضت عليهم من قبل إنسان أو من قبل دواخل.

أخبرني بأنه يعلم بحقيقته لكنه يحاول أن يتجاهلها، وضح لي أن الفسوق حماقة، لأن الشبع سراب لا يدرك، ولأن الطمع يجعل من كل شيء طائرا يصعب صيده. وضح لي أنه لولا التعود، لأسرع بالهروب، خوفا من الهلاك أو تجنبا للحصول على درجة منخفضة في نهاية المطاف.

حدثني بأن الإنسان طماع لا يشبع، لا يعرف الشبع، وأنه كلما حصل على شيء، رغب في المزيد، وغادرته فكرة الاستغناء، فسيطرت عليه المادة وقتلته حقيقة افتقاره إلى الروحانية.

لقد أخبرني بأن عناصر هروبه، هي نفسها التي تشعره بأنه تائه ومتورط في الكثير من الأوقات، ووضح لي أن من يلبي شهواته المشبوهة ويبحث عن اللذة، تزداد لديه قوة الشهوة أكثر فأكثر، ويقيد نفسه بالأصفاد. لكنه تابع كلماته مخبرا إياي بأنه من السهل أن نلفظ الكلمات ومن الصعب أن نترجمها إلى أفعال، خاصة إذا كانت شخصيتنا هشة من الداخل.

كنت أتأمل ما يصدر عنه وأضحك بداخلي، كنت أخبر نفسي بأن الإنسان كائن متناقض غريب، يعرف الحقيقة ويتجاهلها، وفي تجاهلها تكمن معاناته، وفي تصميمه تكمن مصيبته.

كنت أري أنه من الطبيعي للإنسان أن يخطئ، من الطبيعي له أن يتأرجح بين الخير والشر، لكن من الممرض أن يصمم على الشر، ومن المؤلم أن يسير في طريق لا شبع فيه ولا ارتواء.

كانت تلاعبني أفكار الهروب بشدة في الكثير من الأوقات، لكن الحب كان موجودا، وقد نشأ دون شعور، فقد ارتوي الفضول بمساعدته، لكن الارتواء نفسه كان صعب المنال، فكنت أسعى نحو الارتواء، مكبلة بقيود الأفكار، تلك الأفكار التي كانت تأخذني من أقصي اليمين إلي أقصي اليسار.

ورغم علمي أن الارتواء وهم، وأن الشبع سراب، إلا أن عقلي وقتها كان مصمما على المضي إلى الأمام، فكان الأمر جديدا، وكان اللهو طازجا.

فبعد أن يعرف من يلهو أن لهوه قد صار قديما، يشمله الملل ويتساءل في حيرة، فيخبر نفسه بأنه قد ضل وأن الغفلة قد انقطعت بغتة دون إنذار وأنه قد طرد خارج الوتيرة.

فإن أجبرك عقلك أن ترضي فضولك، فلا تتعمق كمغفل ساذج، واهرب في سرعة تامة، قبل أن تألف الأمر، فتصبح له أسيرا.

في إحدى الليالي المتعطشة التي انتهت بارتواء عابر معهود، وبينما كنت راقدة إلى جانبه فوق السرير، اقترب مني وأخبرني بأنه قد قرأ أن فرويد، ذلك النفساني المعروف، كان ينظر إلي الرسام الشهير ليوناردو دا فينشي على أنه شاذ مكبوت، وأنه قد ارتقي بطاقته الجنسية المكبوتة إلى أعمال عظيمة ونطاق باهر.

ضحكت بشدة وأخبرته أن التنقل بين الفلسفة وعلم النفس ودراسات الجنسانية أكثر متعة من التحدث التقليدي الذي ينشب بين الأحبة، ووضحت له أن الإثارة تكمن في التفلسف وأن شخصيته قد طبعت على شخصيتي الكثير من التأثيرات التي صرت ألاحظها بقوة، فصرنا كسارتر وسيمون دي بوفوار.

وقد عدت إلى الأمر الذي طرحه، فأخبرته بأنني أتعجب من هذه الكلمات وأشك في صدقها، فوضح لي أن التحرر والكبت نقيضان، وهو أمر معروف، لكن المجهول يكمن في الحقيقة الناجمة عنهما، تلك الحقيقة التي تخبرنا أن الإبداع قد ينتج في كلتا الحالتين، وهو ما يثير الشكوك حول الوجود ويدحض الكثير من النظريات المتعلقة بالليبيدو بشكل عام.

أخبرني بأن الإنسان لن يحصل على شيء في نهاية المطاف، ووضح لي أنه من الضروري ألا نشعر بالإحراج بسبب بلاءاتنا وأخطائنا، إذ عبرها سينمو كل ما هو جميل، كما يقول نيتشه. وقد تابع كلماته موضحا أن سبب التعاسة يكمن في السعي وراء السعادة بافتراض أننا سنجدها في الحياة، رغم أن الشباب سيحصدون الكثير لو تمكنوا من تخليص أذهانهم من

الفكرة الخاطئة التي تقول بأن لدي العالم صفقة عظيمة سيعرضها عليهم، كما يقول شوبنهاور.

رغم اهتمامه بكلمات شوبنهاور، إلا إنه كان ينظر إليه على أنه فيلسوف لعين متعال، وأنه قد أخطأ كثيرا وعمد إلى التشاؤم المكثف لدرجة حزينة ومخيفة، لا تناسب التقدم إلى الأمام.

وقد حدثته عن إميل سيوران، ذلك الفيلسوف المتشائم الذي كره الحياة وكرهته، ورغم ذلك عاش لمدة طويلة تجاوزت الثمانية عقود. فضحك فيلسوفي وأظهر أطيافا من الشفقة تجاهه، مخبرا إياي بتعجبه من كيفية قضائه لهذه الفترة الطويلة معتمدا على عقلية مميتة.

أخذنا نضحك بشدة، نضحك من جراء كل حركة بسيطة، تبادلنا القبلات واللمسات، خلعت قميصي الأبيض الذي زينته علامة رالف لورين، وجلست أمامه كما ولدتني أمي بعد أن تخلصت من حمالة الآنسة فيكتوريا، فتأملني مظهرا نظرات الدونجوان، لكنه ليس بدونجوان، ليس برجل يبحث عن أمه في كل امرأة يقابلها، ليس برجل يعجز عن إيجادها فيهن ويشعر بالذنب في كل مرة بعد أن يغادرهن كما يقول يونج، إنه فيلسوفي، فيلسوفي فحسب.

إن الرجال واهمون، قدراتهم ليست كما تتخيلون، جيدة لكنها ليست عظيمة، فلا توجد عظمة لمادة محسوسة دونية، ولا توجد جلبة لمثل هذه الأمور، وإن وجدت الجلبة، فقد وجدت مجبرة وأبرزت بعد اصطناع وأقحمت بعد زيف وتجديف.

-7-

في كتاب غريب وجريء، وجدت رجلا يتحدث عن أهمية الجنس وكونه المحرك الرئيسي للبشر معتمدا على الكثير مما قاله فرويد ومضيفا إليه العديد من كلماته وأفكاره. لكنه في نفس الوقت، يخبرنا بأن توظيفه خارج الإطار الديني والعاطفي المعهود، يجعلنا أشبه بالحيوانات، ويؤكد على أن البشر معرضون إلى الوقوع في حفرة الخطيئة، ورغم ذلك يبقي من الضروري لهم أن يعترفوا بكونهم قد أخطأوا وأن يتقبلوا كل التوصيفات الناجمة عن أفعالهم حتى يتوقفوا عن التعمق في ممارستها.

لم يستثن نفسه مما قاله، ووضح أنه ليس بمعصوم، وأكد على أنه ليس من الضروري أن نتعرف على خلفيته الفكرية أو أفعاله أو أخطائه، لأنها أمر يخصه، وسيتحمل عواقبه في نهاية المطاف. وقد أخبرنا بأن أفعالنا تخصنا أيضا، وأنه أمر معروف ومنطقي، ولكنه رأي أن الاعتراف بالحقيقة ضرورة لأنه يجنبنا أن نكذب على أنفسنا ويساعدنا على التقدم إلى الأمام بعد التخلص من الشرور التي من الممكن أن تصيب الإنسان بدرجات متفاوتة ووفقا لظروف متعددة.

لقد أخبرنا بأن العقل البشري يستدعي التجارب الجنسية الشخصية، ليساعد على تفريغ الطاقات. لكن النقطة المحورية التي تخص هذا الشأن، تتمثل في الصبغة التي تصبغ بها هذه التجارب. فإن حدثت خارج إطار الزواج وفي مجتمع محافظ، نظر إليها المرء على أنها نزوات وأمر مشين منحه لذة عابرة لكنه أرضي فضوله. وإن حدثت بصورة غير رسمية في مجتمع

متحرر أو مجتمع يسهل فيه التعبير عن الجنسانية دون قيود، نظر إليها المرء على أنها مجرد ذكريات تسعي نحو الوصول إلى إحساسات. وقد أكد على أن الخيانة الزوجية قادرة على صبغ هذه التجارب بصبغة الانحطاط مهما كانت طبيعة المجتمع في أغلب الأحيان.

وضح أن التجربة العملية تثبت أن الإنسان قد يتحمل صبغة الانحطاط من أجل لذة الممارسات، وأنه قد يصمم على أفعاله، رغم علمه بكون المتعة المصاحبة لها عابرة، وقد أخبرنا بأنه من الضروري ألا نتفاعل بشدة مع الكلمات عند دراسة الجنسانية، لأن دراسة الواقع والنشاط البشري قد تثير الارتباك.

أكد الكاتب علي أنه لا يسعي نحو كشف الستر عن أحدهم، وأن دراساته عامة و لا تتطرق إلى شخص محدد. وقد وضح أنه يحب هذه الدراسات ويجد فيها متعته وقدرته على الكتابة، وأنها تحدث بداخله لذة من نوع ما.

حدثنا بأن النصائح المنثورة عبر صفحات الكتاب، مقدمة إليه قبل أن تقدم إلى أي إنسان آخر، وأنها تسعي نحو إرشاده إلى الطريق الصحيح قبل أن ترشد الآخرين، وأنه لا يدعي الفضيلة، لكنه مثله كمثل أي إنسان عاقل، يسعي نحوها.

لقد أخبرنا بأنه قد ألف عددا من الروايات القصيرة التي اعتمدت على ضمير المتكلم، وأنها قد عمدت إلى تجربة إنسان تائب أو إنسان يحاول أن يجابه الرزيلة، وأنه قد قدم هذه الأعمال كمساعدة للتائهين على التخلص من الشرور وكمحاولة منه تجاه حثهم على الاعتراف بالحقيقة، الاعتراف الذي يمثل الخطوة الأولي تجاه إصلاح النفس.

وضح الرجل أن الكتابة تحمل بين طياتها النظرة العلوية، لكنها ليست بنظرة مقصودة، وأكد على أنها تتولد بسهولة أثناء عملية الكتابة، وهو ما قد يضايق بعض القراء.

وفي نهاية عمله، نبه إلى حقيقة أن الممارسة الجنسية السليمة المبنية على قواعد المجتمع والدين والمشمولة بالعاطفة، تمثل الإطار الأفضل والأكثر روعة لكل من يرغب في حياة سعيدة وجميلة. فالعاطفة بمثابة الخلطة السرية لجنس سليم، كما يقولون.

كان كتابا من كتب فيلسوفي، وقد تعجب من حقيقة أنني قد استعرته منه واهتممت به وصرت أتنقل بين صفحاته دون توقف.

-8-

في شقتي، تمددت على أريكتي مرتدية قميصا لونه أحمر تتوجه علامة لاكوست خضراء، وقد تخلصت من بنطالي وأخذت أتأمل فخذي، بينما كانت أباجورتي المفضلة تطل على بضوئها الجذاب.

وقد نال النوم مني، وجاءني عجوز غريب، عجوز أخبرني بأنه يمثل الموت وكل ما هو مريب، فأخبرته بأنني لا أخاف الموت، وأن غريزته كامنة بداخلي بشكل لا يختلف عن غريزة الحياة.

لم أعد أتذكر الأسماء، لم أعد أتذكر الأرقام، دوام الحال من المحال، وجهي لم يعد كما كان، بطني لم تعد ذات استواء، الأحباب يتلاشون والمقربون يموتون، تحقيق الذات أمر شاق، الكمال لا يدرك، الأخطاء كثيرة والصراعات عديدة، الزمان يسرع كالقطار، وغيرها من العبارات.

كلها عبارات رثاء، كلها عبارة تنم عن تسهيل التلاشي وتدعيم غريزة الموت التي تلاعبنا بين الحين والآخر كما تلاعبنا غريزة الحياة. لكن غريزة الحياة أكثر وضوحا، فننشغل بها وننسى ما يخفي عن الأنظار.

لقد اعتبر فرويد حافز الموت الحافز الرئيسي نحو التلاشي والتدمير الذاتي، وتم اقتراحه في الأصل من قبل سابينا سبييلراين في بحثها "الدمار كسبب للمجيء إلى الوجود" في عام 1912. وقد تناوله فرويد في عام 1920 في مقاله "ما وراء

مبدأ اللذة". حيث ترجم هذا المفهوم على أنه معارضة واضحة لإيروس والميل نحو البقاء والانتشار ومسايرة محركات الإبداع.

استيقظت من نومي، نظرت إلى قدمي فشعرت بأن هناك تشققا مقلقا، فأسرعت بإحضار المرطب وعمدت إلى استخدامه بكثافة، وقد وضعته على كل جزء من جسدي غير عابئة بكونه قد صنع من أجل القدمين فقط. وحينها، تساءلت عن حقيقة المسار، فجعلت من فكرة صغيرة أمرا كبيرا، وأخبرت نفسي بأن الإنسان يستخدم الموجود ليؤدي الغرض، وأنه ليس من الضروري أن يلبي الغرض علي أكمل وجه، لأن الكمال لم يصنع لنا. يبدو أنها غريزة الموت، يبدو أنها قد بدأت تلاعبني.

وجوم يسيطر علي كياني، ثورة تحاول نفسي أن تشعلها في ظل صمت مخيم، زعزعة تنتاب أعضائي، ويقين بأن إخباء النار قد صار مستحيلا. فوق سريري أرقد، وأمامي يجلس رجل غريب، رجل يطالبني بأن أتجرد من كل ما يغطيني، يقترب مني ويحاول أن يساعدني على بلوغ أمر لا أفهمه ويرهقني.

شمس تظهر في منطقتي، تراب يثور غباره بحوافر ثور مخيف، تتراجع الشمس إلى الوراء، وها أنا ألاحقها عارية كما تلاحق الواهمة التائهة السراب. لكنه تيه نال مني بيدي، بعد أن فتحت له الباب على مصراعيه، فلو كنت قد أغلقته منذ البداية، لم يكن قد تمكن من النيل مني.

-9-

أجلس مع الفيلسوف في النادي، تنورة سوداء قصيرة تزين نصفي السفلي وقميص أبيض يزين نصفي العلوي، هل تعلم سر وصفي لنفسي بهذه الصورة؟ هل تعلم أنه من الممكن أن أمنحك المزيد من التفاصيل حول حجم صدري وقياس خصري؟

نعم، يمكنني أن أفعل هذا بكل سهولة، فقد علمتنا الحضارة الحديثة أن نساعد الرجال في عملية التسليع التي يمارسونها تجاهنا، نعم، لقد صرنا ندعمهم، أنصتنا إليهم، وتخلينا عما كان من الضروري ألا نتخلى عنه.

لا أعرف إذا كنت أعرف الكثير عن النسوية أم لا، ربما لا أعرف سوي التسليع وحماقته، وربما يصعب الحصول على الارتواء فيما يخص الحقوق النسوية. فكلما تعرفت على المزيد، كلما شعرت بأن هناك أكثر لم يبلغ بعد وهناك أعمق لم يتم الوصول إليه قط.

يخبرني الفيلسوف بأنه يشعر بي، يدرك التوتر الذي أعيشه، يعرف أنني لست على ما يرام، ويتمني أن أهدأ وأتقبل العلاقة كما هي خارج الإطار الرسمي.

أخبره بأن الروحانية قد أتلفت وأن المادية قد زحفت، أقترب منه وأمنحه قبلة على خده، أسير بعيدا عنه عائدة إلى شقتي بينما تتطاير تنورتي كاشفة عن بهائي، فيطلق الصفير ويصفني بالقنبلة، فأضحك كالمجنونة، بينما يراقبنا لوسيفر من بعيد مختبئا وراء شجرة الوعيد.

لم تعد شقتي كما كانت، فقد صارت بعيدة كل البعد عن النظام، نالت منها العشوائية، سيطر عليها الهراء، وصرت عاجزة عن الاهتمام بها بعد أن استحوذ الفيلسوف علي كياني.

ولجت غرفة الجلوس، قفزت إلى الأريكة كما تقفز القردة إلى مستقرها، وجلبت كتابا لأشغل بالي. كان عنوانه "طريق الحياة"، ذلك الكتاب الضخم الذي يتحدث فيه تولستوي عن الكثير من الأمور.

لقد لاحظت تركيزه على الروحانية، كان يتحدث عنها بإلحاح وتكرار، كان يتحدث عنها في كل جزء من الكتاب، كان يعرضها بصياغات مختلفة ويعمد إليها بطرق متنوعة.

علينا أن نعلي من الروحانية ونقلل من المادية والحياة الجسدية، لكن الكلمات سهلة والأفعال صعبة، فالرجل تجذبه المؤخرات كالمغناطيس، الرجل الشهواني، ولكن هل يمكنك أن تحضر لي رجلا بعيدا عن الطبيعة الشهوانية؟

إن أحضرته، سأمنحك جائزة، سأصفق لك طوال الليل، وسأقدم إليك أغلي ما أملك، نعم، أغلي ما أملك، قلبي.

لقد انتابتك أفكار أخري عندما أخبرتك عن أغلي ما أملك. هل تعرف لماذا؟ لأنك منهم، لأنك لا تختلف عنهم كثيرا، لأن الغريزة تحركك وتدفعك إلى الأمام.

ولكن لماذا اعتبرتك قارئا؟! لماذا لم أعتبرك قارئة؟!

ربما يكون الأمر متعلقا بالتفكير الملح تجاه الجنس الآخر، ربما يكون الأمر كذلك! ربما يكون كذلك!

ها هو ذهني يخبرني بأن التعميم وهم كبير، فالخير موجود والشر موجود، ها هو يوضح لي أنه من الضروري التخلص من الشرور التي سيطرت علي كياني، بهدف العودة إلى الطريق الصحيح، قبل فوات الأوان.

-10-

إن انتهاك رجل لجسد امرأة واحدة، حتى إن لم يكن انتهاكا كاملا، قادر علي منحه الثقة أن ينتهك كل أجساد النساء. لكنه في حقيقة الأمر، من الممكن أن يكتفي بامرأة واحدة، ومن الممكن أن يسعد بذلك. ورغم ذلك، قد تكون مرته الأولي المشينة ضربا من اللهو والعبث، فلا تستمر ولا تصل إلى شيء رسمي. وفي نفس الوقت، لا يمكنني أن أنكر حقيقة أن هناك رجالا لم يعرفوا سوي جسد أنثوي واحد، وهم الأتقياء الذين حفظهم الرب، بكل تأكيد.

لقد كان زوج أختي خائنا كبيرا، كانت تأتيني بين الحين والآخر، لتخبرني عن حقيقة أفعاله وشروره. كان عصبيا شرسا طماعا، وكان يتكالب على الدنيا بلا توقف.

لم يمنحه الإله الراحة النفسية قط، فقد كان بعيدا عنه وكان يقنع نفسه بالنقيض، فلم يهنأ سوي بنزوات عابرة حسية الهيئة بعيدة كل البعد عن الفكر الهادئ أو الراحة الداخلية.

كانت أختي تخبره باستمرار أن يتوب إلى الإله وأن يتوقف عن هذا الهراء، كانت ترشده إلى الصواب وتعلمه بضرورة الاهتمام بالأبناء، لكن حماقته منعته من بلوغ الرشاد، وطمعه منعه من الاكتفاء، فصار عبدا لشيطانه.

في الحقيقة، لا فرق بيني وبينه من حيث الهيئة الخارجية، لكنني كنت أسعى دائما نحو الهروب من الوحل الذي نزلت بقدمي إليه، أما هو، فلم يقدم أي محاولات، وأصر على تنكير

الحقيقة وصبغ الرزيلة بصبغة خادعة، صبغة أطلق عليها صبغة الإنسانية و الوفاء.

-11-

لا يوجد أي شخص بالخارج. إنه يوم طويل حزين بارد!

لماذا هذه الكآبة؟!

من الضروري أن أتجول بالمدينة وأتأمل من وما يحوطني. إنه يوم كمثل أي يوم آخر، لكنني رغم ذلك أشعر بحاجتي إلى شاب يافع يشعل حماستي.

ولكن ألا يكفيني فيلسوفي؟! ألا يكفيني فيلسوفي؟!

إن لذة الفكر لا تضاهيها لذة، وعندما تجد الفتاة رفيقا يمنحها المتعة الجسدية، ويتبعها بالعواطف الجياشة، ويضيف إليها لذة الفكر، فما الذي تحتاجه بعد ذلك؟!

في الحقيقة، إنها تحتاج إلى الأمر الأكثر رونقا وإشراقا، إنها تحتاج إلى مكمن الروحانية، تحتاج إلى الارتقاء بروحها فوق كل شيء، وهو ما يتفوق على الجسد والعاطفة والفكر بصورة لا يمكن تخيلها.

إن الفاسق لا يطيق نفسه، فيسير بين الناس متجهما، يظن أنهم يراقبونه، يظن أنهم يحتقرونه، لكن الحقيقة تخبرنا بأنه لا يوجد من يراقبه، فكل إنسان مشغول بنفسه، بل إن من يراقبه يكمن بداخله، ومن يحتقره يسكنه. فمن يقع في نزوة، قد يشعر بضيق عندما يتذكرها، فما بالك بمن صمم على التعمق والتكرار!

من الضروري أن أتوقف عن التحدث إلى نفسي. من الضروري أن أنزل إلى الشارع لأقابل أستاذي.

نجلس بشقته، نتحدث كثيرا عن أمور متنوعة، يخبرني بأن المرأة تحفز الرجل على التقدم إلى الأمام، لكنه يكتشف في نهاية المطاف أن الأمر خدعة، وأن المقصد بأكمله يتمثل في اللجوء إلى الإله. يوضح لي أن الأمر لا يختلف عندما نتحدث عن نظرة المرأة إلى الرجل، فهو من يحفزها، وانكشاف الحقيقة أمر مشترك بينهما.

تابع كلماته موضحا أن هناك بعض الاختلافات، إذا أردنا أن نتعمق في التحدث عن الأمر، لأن كثرة العلاقات قد تصيب المرء بالإحباط، وقد تظهر له حقيقة الأمر مبكرا لتقتل الوهم في سرعة تامة.

انتقلت إلى موضوع آخر. فسألته عن رأيه في الكبت الجنسي. فأخبرني بأن الكبت يتمثل في الخوف من التعبير عن الجنسانية، والشعور بالذنب والقلق عند التحدث عن الأمور التي تخص هذ التعبير. وقد وضح لي أن المرء قد يرضي غريزته، لكنه رغم ذلك يظل مهووسا بها، لأن كثرة التحدث عن الأمور الجنسية، قد لا ترتبط بتحرر أو كبت، فربما تمثل ببساطة إعجابا بالأمر أو نتاجا لنظرة عبثية أو ساخرة مرتبطة بالشخصية نفسها.

حدثني بأن الكثير من البشر يعتبرون النشاط الجنسي المهدئ الرئيسي لهم، مما يؤدي إلى إحساسات غريبة في كل مرة يشعرون بالضيق حيال شيء ما. فإذا أحسوا بضغوط في العمل أو

كانوا ممن يعانون من توتر اجتماعي، عمدوا إلى الممارسات الفردية على سبيل المثال، أو فكروا فيها، وربما اتجهوا إلى الشريك إذا توافر بطبيعة الحال.

أخبرني بأن علماء الجنسانية قد توصلوا إلى حقيقة أن هناك عددا كبيرا من البشر لا يهتم بالجنس حقا، وأنه من المعروف أن للنساء نصيبا كبيرا في هذا الشأن.

أنهى كلماته مخبرا إياي بأن الكثير من الرجال لا يهتمون بنفسية المرأة، وأن الأمر مختلف عندما نتحدث عنها، فهي في حاجة إلى التمهيد والرعاية والاحتواء، لا الهجوم والعنف الذي يعمد إليه هؤلاء الرجال.

كان اللعين يتحدث وكأنه رجل حكيم، كان يتحدث وكأنه يحترمني، فقد كنت عشيقته الصغيرة المدللة، كنت قطته التي سيطر عليها فمنحته قلبها الراغب في الدفء بأي شكل من الأشكال.

لقد كانت الهيئة مشوهة لكنني رضيت بها لأنني كنت في حاجة إلى ولوج هذه المنطقة. ورغم ذلك، لا يمكنني أن أنكر حقيقة أنني قد رغبت فيها بصورة مختلفة، صورة كنت في حاجة إلى توافرها، لأشعر بأنني على ما يرام.

لن يهدأ بالي مهما بحثت عن مبررات، فالمبررات لا تعمل سوي في سياق الأوهام. ونحن البشر، نعيش الوهم دون اهتمام بالحقيقة، لأننا لا نعرف مرونة تساعدنا على الانتقال.

من عرفت المرونة، صارت ملكة، لكن الملكات واهمات.
فحينها يصبح الانتقال غريبا، فلم ننتقل من الوهم إلى الحقيقة، لكننا قد انتقلنا من وهم إلى وهم آخر، فصرنا نعبث بداخل المتاهات.

إن الدنيا لا تمنح الإنسان الارتواء، وإن بلغ يوما، كان مزخرفا بزينة تخفي وراءها الكثير من المتاهات. فكلما حصد الواهم شيئا، بحث عن شيء آخر، وكلما شرب، رغب في المزيد دون توقف أو استغناء.

-12-

في أحد الأيام، جلس الفيلسوف يحدثني عن إعجابه بملابسي، فشكرته وأخبرته بكونها قديمة وأن قدمها يمنحها رونقا جنبا إلى جنب مع ماركتها وخامتها. فأخبرني عن عدم اهتمامه بالماركة، لأنها ليست بالضرورة أن تعبر عن القيمة، ولأنه ليس من الضروري لكل ما هو مشهور وممتدح أن يكون جديرا بالثقة.

أخبرته بأن الأمر يختلف من حالة إلى أخري، وأنه من المعروف أن التعميم لا يؤدي الغرض والبحث عن القواعد أمر صعب في الكثير من الأحيان.

انتقلنا بعد ذلك إلى موضوع آخر، حيث تبادلنا الحديث بينما كنت مرتخية على الأريكة الحمراء التي زينت غرفة جلوس الشقة التي ابتاعها من أجل زواج ابنه، ابنه الذي لم يعد بعد من أوروبا. وقد أخبرني عن حقيقة عدم إعجابه بتصرفات ابنه، حيث وضح لي أنه قد سافر إلى أوروبا بهدف الدراسة والعمل، على أن يعود إلى الوطن عندما تسمح الفرصة. لكنه سرعان ما أقحم بعض العبارات الغريبة مخبرا إياي بأنه قد علم بعد ذلك أن الابن اللعين قد سافر من أجل اللهو مع فتاة من كولومبيا، فتاة تعرف عليها عبر الإنترنت واتفقت معه على أن تقابله على أرض القارة العجوز.

أخبرني بأنه يشعر بأن الابن راغب في البقاء هناك، وأن زواجه قد دخل مرحلة التعقيد، فسيطر عليه اللهو، وصنع منه منحرفا كبيرا.

حينها، نظرت إليه متعجبة من أمره، وقد حدثت نفسي بأن ابنه لم يقدم جديدا، فقد نقل تصرفات أبيه إلى الواقع، نقلها كما هي دون تعديلات، فقد ورث جين الانحراف على ما يبدو!

إن الحرية مشكلة كبيرة. نعم، فالحرية الكاملة قادرة على إقحامنا في الكثير من المشاكل، المشاكل التي إذا لم تأخذ حيزا مرئيا، تمكنت من المرء نفسيا وروحيا، وإذا ظهرت في إطار مادي، تبعتها العديد من العواقب التي لم تجلب سوي العار والهراء.

ورغم ذلك، من المعروف أنه من الضروري للإنسان أن يحذر عند محاربته للوحوش، لأنه قد يتحول إلى وحش دون أن يشعر. وعندما يحدق طويلا في الجحيم، فإن الجحيم سيحدق فيه أيضا، كما يقول نيتشه. ورغم ذلك، ها أنا أشعر وكأنني رفيقة وحش جاسر، وحش تمكن مني وسيطر علي، فتبادلنا الحب بجنون، رغم التشوهات الكثيرة والتراكمات العديدة.

نظر إلي، تأملني بلا توقف، اقترب مني، منحني قبلة أشعلتني، قبلة ضخت الحماسة في أرجائي فارتفعت هرموناتي إلى معدلات قياسية، وأحسست برغبتي في حضن دافئ. فلطالما كانت الأحضان بمثابة المسكن والمهدئ للبشر، ولكن ماذا لو كنت أتبادل هذه الأحضان مع رجل كنت أراه حبيبا أحيانا وشيطانا أحيانا أخري؟!

بعد الحضن الواهم والعابر، أخبرني بأن ابنه قد تعود على الهروب من الواقع باستمرار، وكان يعمد إلى عناصر الهروب

والحشيش مع كل مشكلة تقابله، ولهذا رأي أنه قد فشل في منحه التربية اللائقة.

حينها، لم أتمكن من إحجام نفسي عن التخلص مما كان يلاعب عقلي الباطن، ولهذا أسرعت وأخبرته بحقيقة أن الأب يمثل القدوة بالنسبة إلى الابن، وأنه من الممكن للابن أن يعرف الكثير عن الأب دون أن يدرك الأب حقيقة التأثر، ولهذا من الضروري أن يعترف بماهيته ويحاول إصلاحها قبل فوات الأوان.

ضحك بشدة، أخبرني بأنه ليس بالمغفل كي يتجاهل مثل هذه الحقائق، وأن الظروف لا تسمح بتطبيق ما نريده في الكثير من الأحيان. تابع كلماته مخبرا إياي بأنه يدرك حبي للتلميحات والتلاعب بالعبارات، وقد نظر إلى نظرة خبيثة نمت عن احتقار، فوضح لي أنه من الضروري أن نتعلم ألا نلقي باللوم على الآخرين، فإذا تشارك اثنان جريمة ما، كان كل منهما من المذنبين.

حينها، صرخت بشدة، أخبرته بأنه قد جعلني أشعر وكأنني عاهرة فاسقة باعت جسدها للشيطان وسمحت لمنحرف من الإنس أن يعبث بأغلى ما تملك وأن يتلاعب بمشاعرها الجياشة التي كانت من الضروري أن توظف ضمن سياق لائق.

اقترب مني، سيطر على بكلماته المعسولة، طلب مني أن أهدأ، ثم منحني حضنا غريبا، فتبدل الحال وانطلقت الألعاب النارية في تفاؤل وابتهاج.

كأسان من الخمر اللعينة، كلمات بذيئة نتبادلها، أصفه بالفاسق ويصفني بالفاسقة، تبادل لمسات، رغبات واحتكاكات، صعود إلى السماء وهبوط في لحظات، وحالة واضحة من النار اتوفيليا.

إنها بيئة التناقض البشري المعهود، إنها حالة الخطل المرفوض، لكنه عندما يتاح، نقدم عليه في انفتاح، فنجد أنفسنا ملهوفين، رغم كوننا مدركين لحقيقة الأمور وطبيعة المسار.

ورغم ذلك، لا يمكنني أن أنكر حقيقة وجود الصالحين، لكن الأضواء كثيرا ما تسلط على المنحرفين وما يصاحبهم من توترات واضطرابات وغياب ثقة وضلال وبهتان.

-13-

أباجورتي المفضلة بشقتي، تشع ضوءا قادرا على إحاطتي بالدفء، قمر يضحك من بعيد، فيلسوف يكبرني بعقود، يحتضنني كما يحتضن الجد حفيدته الصغيرة، وأريكتي عاجزة عن احتضاننا، لكننا نصمم على أن تحتضننا، نعم، نصمم على أن تحتضننا!

بعد تبادل ما يتبادله العشاق، لجأنا إلى كتاب ذي عنوان غريب، تنقلنا بين صفحاته في سرعة تامة، وتطرقنا إلى أهم نقاطه ومحاوره.

إنه كتاب عن الكثير من الأمور النفسية، كتاب عن سيكولوجية الخطيئة، كتاب عن نفسية الرجل والمرأة. يخبرنا بأن أكثر استغفارات البشر تتعلق بمسائل غرائزية، يوضح لنا أن عدة تجارب عاطفية فاشلة لفتاة قادرة على تدميرها وبث الاضطراب والتعقيد في كيانها، ويتحدث عن الحقيقة القاسية، تلك الحقيقة التي تخبرنا بأن العصر الذي نعيشه جعل المجتمع يعاني من كبت أو انحراف جزئي أو انحراف كلي أو زواج عسير قد يريح النفس بسبب وجود الشريك لكنه يميت الجسد بسبب الرغبة في الكثير، وربما لا ينجح في توفير ما يجب توفيره، دون مهرب متاح، بعد أن تشبعت البيئة بالكثير من التعقيدات.

انتقلنا بعد ذلك إلى مشاهدة فيلم يدعي "ذو اللحية الزرقاء"، فيلم يتحدث عن رجل برجوازي يتزوج أجمل النساء ثم يقتلهن الواحدة تلو الأخرى. لكن الأمور تتغير عندما تحل زوجته

الجديدة لتكتشف الحقيقة، فيمنحها ساعات معدودة قبل أن يتخلص منها هي الأخرى، بعد أن توصلت إلى سره.

إن الدونجوان الذي يمثل محور القصة، يتخلص من كل امرأة يتزوجها بعد فترة، لأنه كاره للنساء غريب، و لا يتوقف الأمر عند هذه النقطة فحسب، لكنه يعاني من ضعف جنسي كبير.

بعد ذلك، أخذنا نتحدث عن الكثير من النقاط الفلسفية الباهرة، فأخبرني بأن العشق قد يمثل مرضا في الكثير من الأحيان، وأن بعض المفكرين ينظرون إلى عشق المرأة على أنه خلل أو مرض أو ابتلاء وأنه من الأفضل للمرء أن يتعلق فقط بالإله. وقد انتقلنا بعد ذلك إلى موضوع بعيد، فتحدثنا عن الطاقة الاستفزازية التي تمثل السياق، ووجدته يخبرني ببراعة أن الاختبار يكمن في التعرض إلى الاستفزاز، وأنه يتحول إلى سياق واضح عبر بيئة القذف الغريب، فيحتك البشر ببعضهم البعض ويقذفون بعضهم البعض بالمزهريات التي لا تسكنها وردات لكن تسكنها قاذورات، فتنتج التفاعلات وتعقد الاختبارات.

لقد أخبرني بأن الكثير من العقول المعروفة لم تحسن التعامل مع الاستفزاز في الكثير من الأحيان، فعمد إلى شوبنهاور، ذلك الفيلسوف الذي لا يطيقه، وأخبرني بأنه كان يري أنه من الأفضل للمرء أن يقذف الآخرين بالورد إذا قذفوه بالحجر، على أن يكون مع الورد مزهرية، مما أكد على أن الكثير من الهراء قد ينجم عن ألسنة المفكرين بين الحين والآخر، فالتحدث بكثرة يؤدي إلى الحشو واللغو في أغلب الأحيان، خاصة إن كان مصبوغا بصبغة الاستفزاز.

كانت كلماته رنانة، تسللت إلى عقلي فسيطرت علي، لكنني سرعان ما تساءلت عن حقيقة الاستفزاز الذي تبثه علاقتنا في كياني بين الحين والآخر، تساءلت عن حقيقة كونه ناجما عن المناوشات التقليدية بين الرجل والمرأة أم عن حقيقة كونه مرتبطا بماهية العلاقة وكونها آثمة.

إن العلاقات الصالحة كثيرا ما يشملها الاستفزاز، فما بالك بالفاسقة!

فعلاقة الرجل بالمرأة ليست بالسهولة التي نتخيلها، فهي في حاجة إلى التكيف وقتل بواعث النقص والمشتتات، وفي نفس الوقت لا يمكنني أن أنكر حقيقة أن المراهقة تعتقد بكون العلاقة العاطفية جزءا من الجنة، رغم أنها لا تقترب من ذلك إلا في بعض الأحيان، ولا أعني بالجنة الجنة الفعلية من أجل صدق الكلام وحرصا على إدراك الحقيقة التي تخبرنا بأن الأجواء لا تعاش كما يهيئ لنا الخيال. ورغم ذلك من الممكن إدراك بعض اللحظات ذات التأثير الخلاب. فالحياة تمثل مسارا تسكنه بعض لحظة الانتصار التي تراودنا بين الحين والآخر بعد كل مجهود جبار.

-14-

ولجت أحد مقاهي ستاربكس في التجمع الخامس، طلبت كراميل ماكياتو كبير الحجم ذا لبن منزوع الدسم، وقد جلست أستمتع بالمشروب الذي كثيرا ما دمر ميزانيتي الشهرية. وبينما كنت مندمجة مع اللذة الوهمية، وجدت فتاة مليحة تجلس في المقابل، وكانت ترتدي تنورة قصيرة يرافقها قميص مفتوح يقدم إلى الحضور بعضا مما يجذب الأنظار ويلهي العقول ويقحم بداخلها الهراء.

وجدتها تتأملني بقوة، كانت تنظر إلى بنظرات غريبة لم أفهمها، نظرات رافقتها ابتسامة ذات تأثير خلاب. وإذ فجأة تلج المكان فتاة طويلة الشعر جميلة القوام، تقترب منها وتجلس عن يمينها في تناغم وانسجام. وقد ساورتني الشكوك ونالت مني التخيلات بعد أن رأيت بأم عيني المناوشات والملاعبات.

غادرت المكان في عجلة من أمري، بعد أن اتصل بي فيلسوفي ليعلمني بانتظاره المرهق وخواطره المضطربة، فأسرعت إليه كالحبيبة الساذجة التي طلب منها شيطانها أن تحضر إليه في الحال.

دخلت شقته فوجدته في سجن غريب، سجن حبس فيه بيده وشمل كيانه كنتيجة لتصرفاته، فقد كان يشاهد أفلاما غريبة من زمن فات، وكان يتأملني في شبق واشتياق.

حضنته محاولة تهدئته وطلبت منه أن يهتم بي كما أهتم به، فأخبرني بأنه يقدم كل ما يمكن أن يقدم ويقدم على كل ما يمكن الإقدام عليه، من أجل سعادتي وهنائي.

فأخبرته بأن الإثم قد أنهكني والإفك قد نال مني، فأخبرني بأنني أضخم الأمور وأن الجسد أمره بسيط والفعل نفسه سريع وخفيف، وقد تعجب من كل هذا الهوس وكل هذا الصراع حول جسد يتلاشى وجنس مضمونه يتلخص في لحظات.

وضحت له بأن الشق القذر قد نال من عقله وأنه من المعروف أن الدين يحترم الجسد ويمنحه حقه، وأن الفعل، رغم كونه بسيطا، إلا إنه هام ويحتاج إلى سياق كله سلام.

أخبرته بأنه يحاول أن يتجاهل القواعد من أجل أن يريح نفسه، لكن الراحة بعيدة عن الموقف، والوصول إليها يحتاج إلى التوقف عما نفعل.

وبينما كنت منسجمة مع عباراتي الرنانة التي كثيرا ما ضعفت أمام الواقع والحقيقة، حوطني بذراعيه وأخبرني بضرورة أن ننام لأنه لم يعد هناك ما يستحق الكلام، بعد أن صرنا في أشد الحاجة إلى الهدوء والسكينة، لعل الغبطة والسعادة تشملانا وتأخذانا إلى عوالم الراحة المطلوبة.

وقد حدثته بأن السعادة تكمن في راحة البال، تلك الراحة التي ليس من الضروري أن تحققها الأموال، لكنها راحة تكمن في علاقة سليمة بين حبيبين، ومسار صحيح ذي أخطاء قليلة قدر

المستطاع، لأن التمادي في الأخطاء يقتل الراحة ويجعلها كالسراب.

لم أكن أعرف سر بقائي معه، فقد كان يمنحني ما كنت أفتقر إليه، كان يمنحني الفلسفة والطمأنينة بين الحين والآخر. لكن ثورة الضمير كانت قادرة على إقحامي في الكثير من البيئات التي كان عقلي يأخذني إليها على هيئة جولات، فسرعان ما كنت أجد نفسي في استقرار وثبات، وسرعان ما كنت أنتقل إلى بيئة كلها تشتت وانفلات.

-15-

في يوم مفعم بالتنقل بين اللهو والحكمة، أخبرني الفيلسوف بأنه يري أن المعني كامن في الآخرة فقط، فأخبرته بأن كلماته لا تمثل سوي الصواب، وقد تابعت كلماتي موضحة له أن الحل الأمثل لمن يتمتع بهذه العقلية هو أن يستعد للعالم الذي يكمن فيه المعني، وأن يؤمن بحقيقة أن العبارات التي لا تفيد، لا تقحم في حياة المرء أي جديد.

أخبرني بأن أمري لا يختلف عن أمره، وأن التناقض يشمل كل منا، وقد تابع كلماته موضحا أن النصائح قد تنجم في الكثير من الحالات عن ألسنة يفعل أصحابها ما ينهون الناس عنه.

انتقلنا بعد ذلك إلى موضوع عميق، أخبرني بأن سيطرة الجسد على الإنسان قد تصل به إلى أمور عجيبة، وأنه قد عرف إنسانا وصل إلى حالة شديدة الغرابة، حيث رغب في أن يقطف لذة كل علاقة جمعت بين رجل وامرأة، وكانت غيرته تجبره على أن يفكر في علاقات الآخرين دون أن يعبأ بعلاقته بزوجته، فنال منه الهلاك وكان من التائهين.

تعجبت من هذه القصة ووجدت نفسي في حيرة شديدة، فالإنسان يعاني من تناقض رهيب، تناقض يرهقه على مدار الأيام ويجبره على إيجاد المبررات والغوص في بيئة الأوهام.

إن مشكلة العقل الكبرى تكمن في تخيلاته الساذجة، يتخيل كل شيء بعيدا عن حقيقته، يتخيل الملذات وكأنها الجنة، ويتخيل أن هناك ما يفوته. لكن الحقيقة تخبرنا بأن الإنسان لن

يحصل على شيء بعد كل هذا الكلام، فلو رغب في ملايين الدولارات، ما أتته إلا في سياق استقبل أمرا مباشرا من الإله.

-16-

دخلت ساحة كبيرة ذات أرض تغطيها نقوش عجيبة، كانت الأعمدة تحوطها وكان النخيل يزينها، وإذ بغتة ينتخل السحاب المطر، بينما ينظر إلى الأعلى شبان وسام، وقد اقتربت منهم في خوف وارتياب، فجاءني أحدهم باسم الثغر فرحا، لكنني سرعان ما تراجعت إلى الوراء، بعد أن ظهر منه ما لم يكن في الحسبان.

كان لا يعرف شيئا عن العواطف، كان يريد ما يريده الرجال، خاصة الأوغاد، الأوغاد الذين لا يهتمون بنفسية المرأة و لا يعبئون إلا بكل ما يغني المزاج.

ضمني إلى صدره، فحاولت الفرار، صمم على أن يقترب مني بعنف شديد كمتحرش بليد، فوجدت عصاة ملقاة، فأسرعت بأخذها وضربته في أكثر من مكان ونجحت في التملص والانسلال، وقد قفزت إلي بحر غريب حوطته الأراضي الخاصة بقرية عجيبة، قرية عرفت بقرية الأوغاد.

استيقظت من نومي مفزوعة، فلم أجد فيلسوفي إلى جانبي، فيلسوفي الذي أسرع بالذهاب إلى زوجته بعد أن تلقي منها مكالمة غريبة لم أسمع منها سوي القليل، قبل ساعات.

عدت إلى النوم من جديد، فوجدت كل ما هو مريب، حيث رأيت فيلسوفي في حالة مجون، يتأرجح بين اليمين واليسار كالمجنون، ويناديني من بعيد كاشفا عن اشتياق مخلوط بوعيد.

رجال كثيرون يتحركون باستمرار، ينزلون سلما غريبا دون استقرار، يترنحون محاولين التعبير عن الدهشة والإعجاب، لكن الفيلسوف سرعان ما يسبقهم في ارتياب، مبعدا إياهم عن طريقي القصير والغريب، ذلك الطريق الذي لم يشهد أي تمهيد.

وجدت نفسي في ماخور غريب، كنت واقفة في صف طويل، صف من فتيات عرفن بفتيات الليل، بينما كانت القشعريرة تحوطني وكان الخوف يطعنني.

الكثير من الزبائن يتسابقون من أجل الحصول على المرغوب، لكن المرغوب طريق جميل، لا تمثل نهايته سوي الجحيم، فليس كل ما هو جميل يؤدي بالضرورة إلي الجمال، فربما يمثل الأمر برمته حالة من الغفلة والأوهام.

فلو أدرك المرء إدراكه، فاز بالكثير، ولو تغافل متعمدا، فاته الوفير، فالمرء بحماقته ينزل درجات، وبحكمته يرتفع إلى كل ما هو مريح، لكن الحكمة لا يحصل عليها أي إنسان، فلو كان من الممكن اكتسابها بسهولة، لكان الأمر محاطا بالأمان.

تجاوزهم جميعا، مر بينهم كمسعور، واقترب مني محاطا بالغرور، إنه فيلسوفي الذي حل ضيفا على المكان، ليأخذ رفيقته بعيدا عن أرض الفسوق، ففسوقه بالنسبة إلي معروف، وتجربة واحدة، رغم قذارتها، يسهل التخلص منها بعد عناء، فما بالك بمن وقع في البئر دون قدرة على العودة إلى بر الأمان!

استيقظت من نومي، وجدت خيالا يجري، حاولت اللحاق به فسقط ردائي بعيدا عني. وعندما حاولت الموازنة بين الستر والمطاردة، وجدت فيلسوفي يفتح بابه، ليأخذني بين طيات

أحضانه. فالأحضان تتمتع بأهمية كبيرة، فلولاها ما وجد تقدم وبدونها ما وجدت سعادة، لكن أحضاني لم تكن منمقة بل كانت مشوهة، كان تشويها حاولت تجاوزه، رغم علمي بأن استمرار التجاوز كان ضربا من الوهم.

ورغم ذلك، يسير البشر أجمعون، حاملين في عقولهم شيئا غير معلوم، فالنقص محفز الوتيرة، والعمر يجري بين نقص وخلل، لكن الخلل ذو سياقات عديدة، حتى لو كانت الماهية واحدة، وحتى لو كان التأثير مشتركا.

-17-

مناوشات الخطوبة والزواج، ملاعبات بئر السلم، تبادل التحيات في السيارات، تشارك الابتسامات قبل الصعود بالطائرات، التلميحات والإيحاءات، التخيلات والتمهيدات، كلها أمور لم أحصل عليها كما كان في الحسبان، وكلها أمور نال منها التشتت والفقدان.

إن أحلام البشر تتحقق في الكثير من الأوقات، لكنها أحلام تأخذ نصيبا من أرض الواقع بينما يشملها التوتر والاضطراب والابتعاد عن السيناريوهات، فالأمر أشبه بمخرج سينمائي أقنع نفسه بأنه مخرج، رغم أنه لم يقدم سوي أفلام قصيرة صورها في حديقة منزله، حديقة منزله الحزينة!

إن الأمور التي لا تحدث، تنسي، والأمور التي تحدث، تسير كما يريد الإله، ومن الضروري أن نشكره باستمرار. فالشكر بمثابة الأساس، ولولاه ما تقدمنا إلى الأمام.

فاضت الكلمات من شفتي الفيلسوف، أخذ يتحدث عن مفهوم الطاعة، أخبرني بأن النساء قد خلقن مطيعات، خلقن ليستمتعن بالطاعة، لكن النسوية الغربية اللعينة قد حولت المرأة العربية على وجه الخصوص إلى ما يشبه المسخ، فلم تتمكن من مسايرة واقعها ولم تنجح في تقديم الصورة الغربية كما تقدم في عالمها، فنال منها التشتت وصارت مضطربة.

أخبرته بأنني لا أعرف الكثير عن النسوية، وأنني أشعر، رغم ذلك، أن كلماته تحمل وراءها قدرا من التحقير وتقدم الكثير

من النقاط التي من الأفضل ألا نتطرق إليها حرصا على مراعاة المشاعر المتبادلة بيننا، إن كانت موجودة حقا.

استمع إلى كلماتي، نظر إلى بينما كان مشمولا بحالة من التعجب والاستهجان، وسرعان ما تطرق إلى موضوع آخر، موضوع جعل صوتي يهتز وصنع من استقراري استقرارا عارضا.

إن من يقرأ هذه الكلمات، قد يظن أن الموضوع خطير وكبير، لكن الإنسان في الكثير من الأحيان يضطرب وينزعج بسبب أمور صغيرة وعجيبة، فقد أخبرني بأن أحدثه عن غيرتي من الفتيات والصديقات.

وقد أخبرته بأن الغيرة أمر مألوف بين الفتيات، وأن الذكور يعتقدون أن النساء مجموعة واحدة، رغم أنهن مختلفات ومتشاحنات، فالأمر ليس كما يظنون، والصراع كبير ومعلوم، رغم تفاهته وحماقته.

تابعت كلماتي مخبرة إياه بأن الكثير من الأمور في الحياة، تنم عن حماقة الإنسان وغياب المنطق عن صراعاته العديدة، الداخلية والخارجية. لكنني سرعان ما وضحت له أن الصورة الواضحة لتعامل النفس مع الحياة، تمثلها علاقة عاطفية تقليدية نشب فيها خلاف بين حبيبين، فأخذ الذكر يبكي دون توقف وأخذت الأنثى تجهش بالبكاء وتصيح كمن قتل لها جريح ظنوا أن جرحه قد التئم وأن الشفاء قد صار عن قريب.

إن هوس العقل بالمادة، يجعلنا في حالة صراع شديدة، لكنها حالة قد نتجاهلها لفترة مطولة بينما نكافح من أجل إرضاءات مادية بحتة، بمعني أنه من المعروف أن الإنسان يتجاهل الجهد المبذول من أجل الوصول إلى نقطة محددة. لكن السؤال المحوري الذي من الضروري أن نتطرق إليه، يتعلق بحجم الثمرة ومدي جودتها.

أخبرني الفيلسوف في إحدى الجلسات التي عقدناها بعد تبادل الحب الأهوج، بأن الإنسان الذي يحدثنا عن الروحانية، ينظر إليه على أنه مجنون، خاصة في هذا الزمان، وأنه من المعروف أن التحدث عن الروحانية وأهميتها أمر ديني. وضح أن الإيمان الديني، يسير بين رحابه الكثيرون، إلا إنهم، لا يجيدون التطبيق على أرض الواقع، في نهاية المطاف، وهو ما يثير الكثير من الشكوك حيال إيمانهم!

إن الرجل الذي كان يحدثني عن هذه النقاط، لم يكن بارعا في تطبيق فلسفاته على أرض الواقع، هو الآخر. لكن الكلمات سهلة والتنقل بينها أمر محبب بالنسبة إلى الجميع.

أخبرته بأن من يتعرضون إلى صدمات نفسية أو تقلبات جوهرية، قد يتجهون إلى الروحانية بقوة، بعد التخلص من تأثيرات الصدمة أو التقلب، وأنه من المعروف أن هذه الحالة قد تؤدي إلى نتائج عظيمة فيما بعد.

وضحت له أن الاستيقاظ الروحي ليس بالأمر السهل، وأن الحياة المادية الشرسة تحول البشر إلي ذئاب، وأنه من المعروف أن الفقر قادر علي تحويل الإنسان إلى كائن همجي غريب، كائن لا يسير معتمدا على رقابة ذاتية و لا يعرف شيئا عن الروحانية.

لكنني سرعان ما أخبرته عن الحقيقة الشرسة، تلك الحقيقة التي تخبرنا بأنه من الصعب أن نجد قاعدة ثابتة فيما يخص هذا الشأن، وأن الدليل علي ذلك يكمن في علاقتنا، تلك العلاقة التي نصمم عليها، رغم حجم إدراكنا وفكرنا، وهو ما يؤكد على حقيقة أنه من الممكن لضبط النفس أن يغيب، رغم توافر الإدراك والذكاء.

إن الروحانية تحتاج إلى ضبط النفس، تحتاج إلى التدريب والتطويع، لكن الإنسان كائن مريع، كائن متمرد يبحث عن المبررات، ويتعمق في التنقل بين المغريات.

لقد نزل الإنسان إلى الدنيا بخطيئته، نزل بعد وقوع الإثم، لكن الإثم درجات، والحكمة تكمن في الخروج منها بأقل عدد ممكن من الأخطاء، أما من يريدون الثوب الملائكي، فإن مصيرهم الجنون، ومن يريدون الثوب الشيطاني، فإن مآلهم إلى الجحيم.

-19-

الجميلات القادرات على إظهار معالم الأنوثة قليلات. إنها الحقيقة التي يعرفها الكثير من الرجال، لكن ما يجعلهم في حالة حزن مكبوتة، قد ينجم عن صرفهم الكثير من الأموال بينما يشعرون بأن من لديهم لا تمت للأنوثة بأي صلة.

إنه التفكير الذكوري السطحي المعروف! فالجمال جمال الروح، لكن الحقيقة تخبرنا بأن الأمور لا تسير على هذا المنهج على الدوام، وأنه من السهل أن تلفظ الكلمات ومن الصعب أن تترجم إلى أفعال.

إن الرجال يشعرون بالإثارة معتمدين على مفهوم الشحن والتراكم، يأخذون من الإناث الكثير من الأمور اعتمادا على الشكل والهيئات، ويخبر كل منهم غيره أنه الأفضل في المجال. لكنهم يكتشفون في نهاية المطاف أن الأمر لم يكن سوي ضرب من الأوهام، وأن الطاقات بعد أن خارت جعلت منهم تائهين، خدعهم السراب وسيطر عليهم أنين الحنين إلى الماضي الذي ولى.

في عام 1970، ولد ذكر تتبع العلماء نشاطه، فلاحظوا أمرا غريبا فيما يخص حياته، حيث أنه قد عرف بتركيزه على الأمور الجسدية المحضة، فجعل أكبر همه أن يتعرف إلى امرأة ليبادلها الحب وليضاجعها كما يحب، والغريب في الأمر تمثل في عدم اهتمامه بتحقيق الذات أو الأمان أو الكثير من العناصر الأخرى التي تعمد إليها الحياة. كان هدفه إشباع حواسه، وكان هناك من ينفق عليه المال، أحد أفراد عائلته بطبيعة الحال.

من الممكن أن نرصد حالات عديدة مهتمة بالجنسانية والحب في المقام الأول، لكنها تدرك مع الوقت الحاجة إلى تحقيق الذات من أجل الإنفاق المصاحب للملذات.

ومن الممكن أن نلاحظ تنوعا في العقول، فمن الناس من يقيم الحفلات الضخمة وينخرط في الكثير من الخطوات المعقدة من أجل زيجة تمثل أبسط حقوق الحياة، ومنهم من يتجه إلى البساطة على غير العادة.

فالحياة مفعمة بالألوان والأشكال، لكن النجاح يقترن بالبساطة في أغلب الأحوال. وكلما كنت معقدا، كلما صار طريقك يشبه الأدغال.

إن مشكلة العلاقة بين الذكر والأنثى تتضخم عند الكثيرين والكثيرات، خاصة عندما يصعب الولوج إليهم وإليهن، خاصة عندما لا يفتحون ولا يفتحن الأبواب، فتمر الحياة دون جديد أو تشمل العربدة كل مسار وطريق.

مع الوقت، تعرفت إلى بعض الذكور، كأصدقاء، دون تبادل لعواطف أو اقتراب، وقد مر بهم الزمان دون رفيقة، ومنهم من عربد، ومنهم من عاش دون اقتراب كنيوتن أو إدجار هوفر، رغم اختلاف الشهرة بطبيعة الحال، لكنهما قد جاءا إلى بالي فذكرتهما في سرعة واهتمام.

أخبرتهم في أكثر من مرة بأنه من الصعب أن يجدوا ديان كروجر أو إيمانويل بيار، وأن الحياة تحتاج إلى الاهتمام بالواقع، وأن الواقع يخبرنا بأن الأمور لا تسير كما يخيل إلينا، وأن عملية ولوج قلب امرأة تحتاج إلى مجهود كبير، مجهود يجعل

الرجال غير قادرين على الجمع بين كل شيء في نفس الوقت.
ورغم ذلك هناك منهم بعض المحظوظين الذين تمكنوا من الوصول إلى الكثير، قبل أن تنقلب بهم عربات القطار في نهاية المطاف!

-20-

تقلبات مزاجية، اشتهاء السكريات، هياج واكتئاب، انسحاب اجتماعي، صداع، إرهاق، انتفاخ بطن، وألم عند لمس الأثداء.

يأخذني مزاجي من أقصي اليمين إلي أقصي اليسار، وبعدها يأخذني من أقصي اليسار إلي أقصي اليمين، وكأنني بندول لعين، أتنقل دون مبالاة في تأرجح وعدم استقرار.

جاءني فيلسوفي اللعين، أو الحبيب، لا أعرف ماهيته في حقيقة الأمر، ولم أعد قادرة على تحديد طبيعته، فكثيرا ما شعرت بأنه كان يعاني من اضطراب ثنائي القطب، وربما كان يعاني من أمور أخري لم أعرفها ولم أنتبه إليها، فالغفلة مدوية والإدراك معقد.

أخبرني بأنه يعاني من تأرجح المزاج، فأخبرته بأنني أعاني من المثل في هذا اليوم، وأنه من الأفضل ألا يتحدث إلى كثيرا في الوقت الحالي حتى أستعيد حالتي التي أحبها.

اقترب مني، ضمني إلى صدره، وأخبرني بأنه يهتم بي ويراعيني ويعرف الكثير مما يجري في عقلي. وضح لي أن طبيعة العلاقة تقلقني بين الحين والآخر، فأخبرته بأنه لم يقدم أي جديد، نبهني إلى أن أقدم على فعل ما أحب وأن أتخلص من المشتتات، فشعرت بالحيرة ونظرت إليه بينما كان بداخلي من يهددني في وعيد.

يرن جرس هاتفه، زوجته تخبره بضرورة الإسراع إليها، لأنها تحتاج إليه في اللحظة، فيهرع إليها كالمجنون و لا يعبأ بأمري بأي شكل من الأشكال.

-21-

عندما نضع فكرة في عقولنا كنتيجة لارتباطها بنقص ما، نعود إليها باستمرار، ونعمد إليها في كل حوار، فحينها يبقي من الضروري أن نحذر من تأثيرها الجبار وقدرتها على تعكير صفو مزاجنا مع مرور الوقت دون حاجة إلى انبهار.

إن عملية التعقيد التي تنخرط فيها الكثير من العقول، قد تكون في حقيقة الأمر مجرد تبسيط، نعم، فنحن نصف المعقدين بكونهم يبحثون عن الكثير من الأمور التي تخفي عن العيون،

ولكننا قد ننظر إلى الأمر بصورة مختلفة، عندما نتأمل الحقيقة عن كثب، فعندما نفكك الأمور ونرجعها إلى الأصول، قد نشعر وقتها بأنها قد صارت أكثر بساطة، ورغم ذلك يصعب حينها أن نعود إلى السطح بعد أن نزلنا إلى القاع وتأملنا ما يقبع في الأدوار السفلية.

إن المرونة ليست بالسهولة التي نتخيلها، والوصول إلى كل شيء أمر مستحيل، لكننا رغم ذلك نحاول، نحاول باستمرار أن نصل إلى كل ما يثير وكل ما يجذب الأعين والحواس.

من الصعب أن نصل إلى قاعدة محددة فيما يخص العلاقات، وعندما نفككها بهدف الوصول إلي أمر مبسط ومعلوم، نكتشف أن الضباب قد ساد الموقف وأن الأجواء قد صارت أكثر تعقيدا.

لكن علاقتي مع الفيلسوف، كانت مبنية على الخلل منذ بادئة الأمر، ولهذا منعنا من البدء في التمحيص والتأمل الحقيقي بأي شكل من الأشكال. فلم يكن الأمر سوي بعض الخيالات والأوهام والتنقل بين كل ما لا يسمن الأبدان ولا يثري الأذهان.

صار الفيلسوف متشائما في الآونة الأخيرة، وقد أخبرني بأنه من الضروري للمرء أن يتعلم مقايضة مخاوفه بقهقهاته مع الوقت، وأن ترياق السأم يكمن في الخوف، لأنه من الضروري أن يكون الدواء أقوي من الداء، كما يقول سيوران.

لقد صارت مخاوفه متعددة، وتشعبت فلسفاته دون توقف، فأخبرني بالكثير من الأمور الغريبة والعجيبة. أخبرني بأن كل إنسان يرغب في التعرف على موضع الآخر، كي يشعر ببعض الطمأنينة الزائفة، فيبحث عن أخبار الآخرين ويفتش وراء أمورهم ويضعهم في منزلة أقل منه، ليشعر بالاستقرار. لكن الغريب في الأمر هو أن كل إنسان يقدم على هذا السيناريو في تكرار، فالموضوع مشترك بين الجميع، وهو ما يثبته الواقع الغريب.

وضح لي أن معظم الأمور تحدث بداخلنا قبل أن تأخذ سياقا خارجيا، وأن الحياة تحتاج إلى التقليل من وطأة العواطف، وأنه من الضروري ألا نعمد إلى العواطف باستمرار، لأنها قد تأخذنا إلى سياقات غريبة يرفضها العقل والمنطق.

تابع كلماته موضحا لي أنه يري أن الإله قد منح البشر أجمعين القدرة على المواصلة، وأن العقول تكمن بداخلها أساليب عديدة، أساليب تختلف بين البشر وتساعد كل منهم على التعامل مع

الأمور بشكل مختلف، بهدف تحقيق الإرضاءات في نهاية المطاف.

أخبرني بأن الإنسان يعرف ببيئته، وأن ما يرضي أحدهم في بيئة ما، قد لا يرضي غيره في بيئة أخري، وأن التنوع في العقول بمثابة اللغز الكبير، اللغز الذي يسمح للجميع بمسايرة الأمور والتحرك إلى الأمام، مهما كانت الظروف ومهما كانت التغيرات.

اقتربت منه، شعرت بأنه عجوز في حاجة إلى العناية والاهتمام، لكن السؤال الهام، يتعلق بأوهام الإنسان، ورغبته في الحصول على الاهتمام من مصادر عديدة، رغم وجود مصدر كبير قادر علي منحه كل ما يريد!

-22-

دلفت وراء الفيلسوف إلي طرقة مظلمة غريبة، انتهت بساحة عجيبة منيرة، تتوسطها نافورة الشباب، وتحوطها أرائك خشبية، تعلوها وسائد طرية، يستلقي فوقها ذكور وإناث.

عربدة جماعية يشهدها الزمان، وضباب في كل مكان، وطفلة صغيرة تجري بينما تصرخ مرددة الكثير من الكلمات التي تعبر عن الحسرة والضياع.

فقدت البراءة، ضاع الجمال، طمست معالم الأناقة والدماثة بابتذال، ابتذال شاركنا فيه جميعا، إلا قلة، قلة كانت أكثر حكمة وفطنة وذكاء.

احتضنني الفيلسوف وأخبرني بألا أخاف، حوطني كما يحوط الأب طفلته التي نال منها البكاء، فأخبرته بألا يقلق حيال حالتي، فلم أعد أعرف سوي التشتت والفقدان، وقد صرت قادرة على التأقلم معهما إلا في مرات قليلة، مرات كنت أعجز فيها عن المواصلة والتخلص مما نجم عما لم يكن في الحسبان.

كنت مرتدية قميصا لونه أبيض كاشفة عن فخذين أحببت دائما أن أتأملهما، بينما كان الفيلسوف يسبقني محاولا أن يساعدني على بلوغ مخرج زائف ظننت أن رجلا مختلا كان قادرا على مساعدتي في بلوغه.

انتهى الحلم، استيقظت من نومي، وجدته إلى جانبي بينما كان يحاول أن يخبرني بالكثير عن طاقات البشر وما يتعلق بها من نظريات.

أخبرني بأن الأطفال تتدفق فيهم الطاقات بحرية، لكن عندما يبلغون، يبدءون النضج ككائنات جنسية، فتصبح الطاقة التي كانت تتدفق بحرية متركزة حول الرغبة الجنسية، ويصبح الإدراك عملية آلية حفاظا على الطاقة، فيفقد الوعي النقي والحاد الذي كان يميز ما قبل النضج المرهق.

وضح لي أن الطاقة الجنسية طاقة مكثفة تحتاج إلى التنفيس والتفريج، وأنه من الممكن التلطيف من حدتها عبر التحدث عنها بحرية كخطوة أولية، ومن الممكن التنفيس التام عنها اعتمادا على الأنشطة الجنسية المعهودة والتي تأخذ سياقات عديدة وتتفرع إلى مسارات كثيرة.

أضاف إلى كلماته نقطة هامة، حيث أكد على حقيقة أن التهدئة والمحو بمثابة الهدف الرئيسي وأن استجلاب أحوال التخدير والإرضاء الغرائزي بمثابة المسعي الكبير، لكن المحو سرعان ما يتلاشى في ظرف لحظات بعد أن يتم الوصول إلى المرغوب.

أخبرته بأنني قد استيقظت من نومي لتوي، وأنه من غير المنطقي أن يخبرني بكل هذه الأمور بينما كياني مخمور، فنظر إلي في تعجب وغادر الغرفة في إحراج بعد أن بدأت علاقتنا في ولوج مرحلة التوتر الشديد والتشتت الكبير.

-23-

عندما يخبر إنسان إنسانا آخر أنه طيب وموقر، يخبره الآخر بالمثل في سرعة تامة، ورغم أنه سياق طبيعي لا يحتاج إلى تحليل، إلا إنه قد يحتاج إلى التمحيص في بعض الأحيان، خاصة عندما يكون هناك ما يخفي وراء هذه الكلمات.

قد يشعر المرء بحنق حينما يمنحه أحدهم وسام الخضوع، لأنه يحس وقتها وكأن قدرته على ممارسة الانتهاك قد سلبت منه، ولهذا من الممكن أن يتبادل الشخصان هذه الكلمات لأنها تمثل عبئا عليهما، فيصبح الأمر أشبه بمن يقذف غيره بالحجر، رغم أن الأمر لا يمثل عبئا بأي شكل من الأشكال، إذا أقحمت الحكمة في السياق.

فعندما أخبر صديقتي بأنها طيبة، قد تسرع وتخبرني بأنها ليست بهذه الطيبة، وأنها شقية بنفس قدر طيبتها وماكرة بنفس قدر سذاجتها، وهو ما يشير إلى المحاولات الشرسة التي تحاول النفس باستمرار أن تقدم عليها بهدف بلوغ الاستقرار وتحقيق التوازن بين الخضوع والانتهاك، رغم أن الحكمة تؤكد أهمية الخضوع، الخضوع الذي تتسلل إليه في بعض الأحيان بعض درجات الانتهاك دون أن تشمل السياق أو تصبغ الوتيرة بشكل تام.

نقلت هذه الكلمات إلي عقل فيلسوفي، فصفق لي ووصفني بالبارعة، اقترب مني، منحني قبلة رقيقة، وأخبرني بأنه معجب بذكائي ومهارتي في التنقل بين الأفكار، لكنه سرعان ما نبهني إلى ضرورة أن نسمح للسكون بأن يشمل عقليتينا بين الحين والآخر، حتى لا نعاني من الإرهاق ولا نصاب بالفتور،

الفتور الذي سيطر على البشر وصبغ حيواتهم، فصاروا أشبه بالموتى الأحياء، مهما كانت الظروف والتغيرات، ومهما كانت المظاهر الخارجية المصبوغة بصبغة الخداع.

-24-

أولجا كوريلنكو، تلك الممثلة الأوكرانية اللذيذة التي لطالما أعجبت بها، وقد كان فيلسوفي محبا لها أيضا. جمعت بين الأناقة والقوام المميز والوجه المثير، فمنحتنا خلطة يصعب الوصول إليها، ورغم ذلك، من الضروري أن ندرك الحقيقة، تلك الحقيقة التي تخبرنا بأن الأمر ليس بيدها.

جلست مع فيلسوفي نشاهد فيلما لها، كان فيلما مميزا يتحدث عن غرفة تحقق لزوجين كل أمنياتهما، لكن الأمور لا تسير على ما يرام، عندما تصبح الأمنية طفلا، فحينها تظهر ماهية الغرفة، ووقتها يصير الأمر معقدا رغم منحها إياهما ما يرغبان فيه.

انتقلنا بعد ذلك إلى فيلمين للممثلة البريطانية جيما أرتيرتون، كان أحدهما يدعي "جيما بوفاري"، أما الأخر، فكان يدعي "تامارا درو".

بعد المشاهدات المكثفة، اتجهنا إلى المطبخ، وقد بدأ يساعدني في إعداد الطعام، وانتهي الأمر دون أن يكون على ما يرام، فقد أعددنا طعاما عجزنا عن تناوله، حيث غاب عنه كل ما كان من المتوقع أن يميزه.

طلبنا طعاما من الخارج، بيتزا جميلة كبيرة يعلوها صوص الرانش البهي، وعجينة مميزة تجعلنا عاجزين عن اعتزال التهامها، أما الهالبينو، فها هو يتأملنا، والفلفل الدائري، فها هو يعاملنا وكأنه ثقب أسود.

انتقلنا بعد ذلك إلى كنافة نابلسية باهرة، سيطرت على العقل فصعدت به إلى السماء، وتمكنت من الحواس، فجعلتنا لا نعبأ بكل ما هو آت. لكن ما أخذنا إلى سياق آخر، تمثل في اقترابه مني وضمني إلى صدره، بينما نال منه البكاء.

أخبرني بأنه يحن إلى الماضي الذي ولي، رغم صعوبته، ويشعر بأن الحياة قد منحته ما لم يرد وأخذت منه ما أراد، وأكد لي على أنه يشكر الإله ويرضي بكل أمور الحياة، لأنه يري أن أكبر نعمة ممكنة هي نعمة معرفة الإله والسعي نحو الهداية والرشاد، رغم كثرة الآثام.

وضح لي أنه يتذكر حضن أمه وابتسامة أبيه، يتذكر تلك اللحظات التي جمعت بينه وبين إخوته، يتذكر تلك النقاط المحورية في الحياة التي اقترنت بمعرفة كل ما هو جديد.

أخبرني بأن النشوة تفقد مع مرور الزمان، وأن العقل يحدث بداخله الكثير من التغيرات، وأن الوقت يمر أسرع كلما تقدمنا في العمر، وأن الحل يكمن في التجاهل والتغافل، رغم أن التلافي بمثابة المخدر الذي يساعدنا على التقدم إلى الأمام في سرعة وانسجام.

فأخبرته بأن الانسجام قد يكون خدعة، وأن التجاهل قد يكون بمثابة الكبت الذي يساعد على تجاوز اللحظات، لكنه في نهاية المطاف قد يؤدي إلى الانفجار.

اقترب مني، ضحك ضحكة مخيفة، أخبرني بأن الحياة تعلم الإنسان أن يتقبل كل شيء دون تبرم أو عناد، فمن تبرم، لم يلتفت إليه، ومن لم يفعل، لم يلتفت إليه أيضا!

فأخذت أضحك بشدة، وأخذ، هو الآخر، يضحك بشدة، وأخذت الضحكات تتعالى في عنان السماء، بينما كنا نتبادل القبلات، محاولين التخلص من المشتتات، وكل ما يرهق الأذهان.

إن الفرق بين المتعة والسعادة، لا يدركه الكثيرون، إنه فرق شاسع وكبير، فالمتعة ليست بالضرورة قادرة على منحنا السعادة، والسعادة قد تتحقق مع الروتين، لكن المتعة مطلوبة دون مبالغة، والسعادة بمثابة الهدف الذي يسعى نحوه كل من شملته الحكمة.

عندما أخبرك بضرورة التجاهل، فإن عقلك سيسلط الضوء على الفكرة، وحينها قد يصبح التجاهل نفسه عبئا، وبهذه الصورة، لا تصل إلى غايتك، لكن السعادة قد تتحقق دون تجاهل، فمن الممكن أن تشملنا دون لجوء إلى أساليب عديدة أو مجهودات كبيرة، ومن الممكن أن تسري في عروقنا اعتمادا على الهدوء، ذلك الهدوء الذي يشمل النفوس معتمدا على القناعة والرضا والروحانية التي من الممكن بلوغها مع تدريب النفس، نعم، تدريب النفس.

جلست أتناقش مع الفيلسوف حول هذه الأمور، انتقلنا بعد ذلك إلى موضوع آخر، موضوع تمثل في حقيقة الصداقة بين العقول المختلفة بشدة، فأخبرني بأنها صداقة مزيفة، صداقة يخفي وراءها الكثير من الأمور والدواخل المضطربة.

وضح لي أن الفتاة الفاسقة قد تصاحب الفتاة الصالحة، لكنها صداقة مزيفة، صداقة لا مفر من انتهائها في وقت ما، لأن كل طرف ينظر إلى الآخر ويتمني أن يحوز ما يسيطر على الآخر من خصائص، ورغم أن الصلاح بداخله تكمن النجاة، إلا أن النفس قد تتأرجح، ومن الممكن أن تتلاعب بها الأهواء في لمح البصر، ولهذا من الأفضل أن يسير المرء مع من يشبهه.

أخبرني بأن الصراع بين التقوى والفسوق أمر قديم، لكن النجاة لا تتحقق إلا مع الصلاح، والصلاح لا يمكننا أن نقترب منه دون تهذيب النفس والاعتراف بمشاكلها ومحاولة حلها، أما التعجرف والغرور، فهما الطريق المباشر للجحيم.

أخبرته بأنني لا أفهمه، ولا أفهم نصائحه، لأنه كان عاجزا عن تحويل كلماته إلى واقع، ولهذا أكدت له على ضرورة أن ننهي علاقتنا في أقرب فرصة، إذا فشلت في أن تأخذ أي سياق رسمي.

اقترب مني، ضمني إلى صدره، بدأ في الاسترسال والتنقل بين الكلام، ذلك الكلام المعسول الذي لا يفيد ولا يقدم أي جديد، حيث أخبرني بأنه عاجز عن الإقدام على أي خطوة رسمية، لأنه متزوج ويصعب بالنسبة إليه أن يتعامل مع الأمر بهذه الكيفية.

صرخت فيه بشدة، أبعدت يديه عني، ووقفت ممزقة كدمية عبث بها صاحبها، وأخبرته بأن كلماته لا تحمل أي معني، وأنه لم يعرفني سوي من أجل بعض المتع الفارغة التي كان من الممكن أن أختبرها مع شخص أكثر جدارة أو أكثر شبابا.

نظر إلي في صمت تام، وأخبرني بأنه سيعود عندما أعود إلى حالتي التي كنت عليها قبل النزاع، على أن يتركني لأهدأ وأستعيد الأجواء، تلك الأجواء الساكنة التي كانت تشمل عقلي قبل اشتعال الأمور.

-26-

روبرت ستيرنبرج، ذلك النفساني الذي أخبرنا بأن المكونات الأساسية لعلاقة عاطفية سليمة، تتمثل في المودة والشغف والالتزام، وأن المودة والالتزام قادران على تشكيل علاقة جادة ومستقرة، أما المودة والشغف دون التزام، فإنهما يقودان إلى علاقة شديدة الاشتعال.

جلست أقرأ كتابا من كتبه، تنقلت بين صفحاته في سرعة تامة، وبعد أن انتهيت، أحسست بأحاسيس سيئة عديدة، حيث أخبرتني نفسي بأن علاقتي بالبروفيسور مآلها إلى الانتهاء، وأن انتهاءها قد صار مسألة وقت، لأنه من الصعب أن تعمد إلى التزام، ومن غير المعقول أن أصر على وجود المودة رغم الفارق السني، ومن غير المنطقي أن أتجاهل حقيقة أن لمسة الشغف قد انتهت بعد أن تم إرضاء الفضول والوصول إلى ما كان مكنونا.

انتقلت بعد ذلك إلى كتاب آخر، كتاب أخبرني بأن الكثير من الأشخاص قد لا يجيدون الانخراط في العلاقات العاطفية والجنسية، وأن منهم مدمني العلوم والدراسة وشديدي الخوف والقلق، ولذلك يلجؤون إلى الاقتراب من هذه الأمور في ظل نظام ويتحدثون عنها كثيرا وكأنها أمر كبير، وقد يخبروننا عن نزوات لم تحصل على الإطلاق، لأنهم يحاولون جاهدين أن يرضوا الجانب الشيطاني الذي يحاول البزوغ قدر المستطاع، رغم بيئتهم التي لا تسمح بذلك إلا في حدود.

أما على الجانب الآخر، فمن الممكن أن نتأمل هؤلاء الذين يتنقلون بين النزوات دون امتلاك لوقت ليخبروا أي إنسان عما يفعلون، ودون أن يقضوا وقتا مطولا في تحليل الأمور، ودون

تكبير من شأن سلوكيات هم بالفعل فيها منخرطون، لكنهم سرعان ما يخرجون من غفلتهم التي كانوا معها منسجمين، ليجدوا أنفسهم خارج دائرة الصالحين.

لقد توصلت بعد قراءة استمرت لساعات أن الأمور قد تتعرض إلى تغيرات وأن القواعد صعبة الإيجاد عندما نتحدث عن العواطف والعلاقات بشكل عام.

وقد أدركت أن العقول تكبر النقص، فتمنحه حجما أكبر من حجمه، فنسعي نحو إرضاء النقص بأي شكل من الأشكال، رغم أن الواقع يخبرنا بأن الحياة بأكملها لا تمثل سوي التفاهة والصغر وأنها لا تعبر عن أي شيء كبير ولا يوجد بها إلا الوهم والخيال.

فأمور الحياة أشبه بأمر شابة حاولت باستمرار أن تنخرط في علاقة عاطفية مشمولة بالخيالات والأوهام، وعندما نجحت في الانخراط، وجدت ما لم يكن في الحسبان، فاكتشفت أن الأمر صغير وأنه لا يرقي إلى ما كان يلاعب العقول قبل أن يحدث التغيير ويحل التجديد.

إن الأضواء تلاعبنا من بعيد، وعندما نصل إليها سرعان ما تنطفئ وسرعان ما تتلاشي غير عابئة بمجهود الطريق.

في حلم غريب، وجدت فيلسوفي يجلس إلى جانبي مشمولا بحالة من الهلع والجزع، وجدته يتأملني ويطالبني بأن أساعده، سألته عما يحدث له، فأخبرني بأن هناك بداخله ما يلاعبه ويأخذه إلى متاهات عديدة لا يعرف شيئا عنها.

اقتربت منه، ضممته إلى صدري، ومنحته بعضا من رقتي، لكنها رقة زائفة، رقة تشبه الرقة التي تقدمها المحبوبة إلي الحبيب قبل أن تتركه وتهرب منه، تقدمها محاولة أن تقلل من وطأة الصراع، لا أكثر ولا أقل، لعلها تجد مخرجا سريعا يساعدها على تجاوز الأمر والإقدام على الخطوة التي لطالما رغبت فيها.

استيقظت من نومي مفزوعة، حيث كنت ممددة فوق أريكة الفيلسوف المفضلة بشقته، وكنت مرتدية قميصا لونه أبيض وشورتا لونه أحمر، بينما كانت الإضاءة خافتة وكانت الأجواء ساكنة قبل أن يشملها الاضطراب وعدم الانسجام.

لم أستطع أن أتمالك حواسي، فقد أربكني الموقف إرباكا شديدا، حيث ظهرت لي من لم تكن في الحسبان، ظهرت لي زوجته المخدوعة.

وجدتها تقف أمامي مشمولة بغضب واحتقان، وقد هاجمتني وانهالت على جسدي بالضربات. مزقت ملابسي ووصفتني بالفاسقة الصغيرة وقذفتني بأبشع الألفاظ والأوصاف.

أخذت أبكي بشدة، أخذت أبكي دون أن أجد من يساعدني على التخلص مما نال مني، فقد كان موقفي ضعيفا، وكنت صغيرة وهشة.

نزلت إلى الشارع مسرعة، وعدت إلى شقتي مشمولة بحالة من القلق المريع، ذلك القلق الذي نال مني فأخذني إلى أتون الجحيم على المستوي الداخلي بطبيعة الحال.

نزلت إلى مغطسي، نمت كثيرا، وأخذت أترنح بين الأفكار المتشائمة والمتفائلة، بينما كان بندولي بعيدا كل البعد عن أن يدرك أي شكل من أشكال السكون.

-28-

قد يتحمل الإنسان الانتظار من أجل شيء، لكنه في النهاية يكتشف أنه لم يكن يستحق أي انتظار، وقد يعتقد أن العواطف يمكن توظيفها في أي مكان، لكنه رأي لا يستحق أي اهتمام، فمن الضروري أن توظف العواطف في المكان اللائق، حرصا على السلام وراحة البال.

إن رومانسية الواقع تختلف عن رومانسية الأفلام بشكل تام، ففي السينما، لا يمكننا أن نجد الدواخل مجسدة بشكل كامل كما نظن، وعلى الشاشة، من الصعب أن تترجم كل الأمور إلى كلام معقول، لأن تأثيرات العواطف وتقلباتها أمر يصعب وصفه وبلوغه.

من الممكن أن أحدثك عن العلوم أو الآداب أو الفنون، ومن الممكن أن أتنقل بين الموضوعات التي تخص السياسة والحروب وصراعات الواقع ولقمة العيش، لكن التحدث عن العلاقات له سحر خاص، خاصة عندما يكون الأمر مفعما بالخفايا وعندما يكون العرض مختلفا عن المعهود، ذلك المعهود الذي عرفناه فشعرنا باليأس منه ونال منا السأم كلما اقتربنا من نطاقه.

لكن الغريب في الأمر، هو أن علاقتي بالفيلسوف كانت بعيدة عن العلاقات التقليدية، كانت قريبة من العلاقات السيكوباتية، تلك العلاقات التي تظهر حقيقتها بمجرد انتهائها، وتطفو تأثيراتها فوق السطح بمجرد وصولها إلى النهاية المحتومة، تلك النهاية التي لا مناص من بلوغها ولا مفر من حلولها.

ورغم ذلك، من الضروري أن أشير إلى الحقيقة الواضحة، تلك الحقيقة التي تخبرنا بأن الكثير من العلاقات الناجحة، تسير بعد انتهاء الحماس اعتمادا على الالتزام، فالالتزام والمسئوليات بمثابة المحرك الرئيسي للكثير من العلاقات، لأنه لا مناص من أن يفقد الشغف في وقت ما.

وعندما يفقد الشغف، قد يستمر الأمر كما هو، وضمن نطاق آخر، قد تظهر على الساحة الخيانات، تلك الخيانات، التي يشعر المرء بالندم حيالها بعد الخروج من الغفلات.

-29-

من أجل مشهد سينمائي إضافي تتحدث فيه بريجيت باردو عن كل جزء من أجزاء جسدها، حصلت على مبلغ كبير بالإضافة إلى راتبها الأصلي، ذلك الراتب الذي حصلت عليه بعد نجاح فيلمها المعروف "احتقار".

إنه الهوس غير المنطقي بالجسد الأنثوي، فالرجال يحبون الانحناءات المختلفة، الرجال الشهوانيون بطبيعة الحال، أما الرجال الأتقياء، فإنهم لا يعبئون بمثل هذه الأمور، إلا بين الحين والآخر، دون إصرار أو استمرار.

إن علاقتي بالفيلسوف كانت علاقة جسدين، كانت علاقة ظننت أن الحب كان موجودا بين طياتها، لكنني لم أجد في النهاية سوي الزيف والضلال، فقد كان الأمر جيدا في البداية، لأن المشاعر كانت توظف للمرة الأولي، والحماسة كانت تولد لتخلق حاجزا بين حرمان حسي قد ولي وإحساس قوي قد حل، إحساس قوي تحول إلى عبء كبير في نهاية المطاف.

إن الرشاد يحتاج إلى قتل الفضول، نعم، قتل الفضول، فمن الأفضل أن نوجهه إلي العلوم والأديان، بدلا من أن نوجهه إلى ما يسبب الحسرة بعد أن يكشف عن الحقيقة المرة.

فالأمر، في الكثير من الأحيان، أشبه بمحاولتنا أن نشرب عصيرا لا نعرف عنه شيئا، لكن لونه جميل وذو بريق، مما يجعلنا ننجذب إليه دون إدراك، لنكتشف في نهاية المطاف أن مذاقه اللذيذ قد ولي، لكن السم الذي دس بداخله قد تجلي، وقد بدأ أثره في التمادي والانتشار.

إن الحياة مفعمة بالخبايا والخفايا والمصايد والصراعات، وإذا صممنا على طريق واحد، نال منا السأم والملل، وإذا اتخذنا طرقا متعددة، نالت منا صراعات نفسية وتوترات وجودية.

فلا مناص من التلف والخلل، لكن النجاة تكمن في التصميم على التطوير، تكمن في الوصول إلى حالة التكامل، حالة التكامل الذاتي التي يسعى نحوها كل إنسان عاقل وحكيم.

-30-

بداخل مغطسي، أرقد من جديد، أتذكر كل ما لا يفيد، أتأمل الحياة رغم عدم إلمامي بأي شيء منها، وأنظر إلى الماضي، فأشعر وكأنه قد حدث بأكمله البارحة.

لقد انقطع الأمر بيني وبين الفيلسوف إلي الأبد، لم يبق سوي بعض الذكريات، تلك الذكريات التي جمعت بين الحزن والفرح، بين الملل والشغف، بين المعني والعبث.

لا يمكنني أن أنسي اللقاء المتوعر الذي جمع بيني وبين زوجته. لقد تركت عزلتها على غير العادة، فغادرت شقة الفيلسوف التي كانت تشاركه إياها، وقصدت شقته التي كانت من المفترض أن يسكنها ابنه الغائب.

ولا يمكنني أن أتجاهل حماقتي، تلك الحماقة التي جعلتني أشعر بالأمان التام تجاه الفيلسوف، وفي نفس الوقت منحتني مساحة كبيرة كي أقضي وقتا مطولا بشقته، أو شقة ابنه، غير عابئة بأي تغيرات قد تطرأ على الساحة.

لقد كنت منخرطة في حالة من الغفلة، حالة من الغفلة قطعتها صدمة، صدمة نالت مني بعد أن وجدت امرأته أمامي، لكن الغريب في الأمر هو التصميم، نعم، ذلك التصميم الذي يعمد إليه معظم البشر.

إن التصميم يرتبط باللذة، فلا شك في الحقيقة القائلة بأن اللذة تتولد مع العواطف والأمور الحسية، رغم الوجود الفعلي للكثير

من العوائق التي تطرأ على الساحة بين الحين والآخر، لكن الإنسان يشعر بأن هناك ما يفوته، خاصة عندما يتعلق الأمر بالمسائل الغرائزية والعواطف البشرية، وهو ما يمكن رصده بسهولة.

إن التعبير عن الجنسانية أمر مفعم بالكثير من المسارات، فلا يأخذ سياقا واحدا و لا يحتاج إلى الممارسة الفعلية بشكل دائم، و لا يمكن أن يتحقق بشكل صحي دون عواطف وتآلف، وهو ما يمثل المنطق.

وفي نفس الوقت، لا يمكنني أن أنكر حقيقة أن المرأة قد شغلت المجتمع المتدين والمتحرر على السواء. فبالنسبة للأول، فقد شغلته لأن المسألة غرائزية بقوة و لأن الانتهاكات عديدة وعبء الرزيلة كبير حيث أنه عبء ينقص الدرجات وقد يهدد بعدم ولوج الجنات إذا اقترن الأمر بالتصميم. أما الثاني، فقد انشغل بتعرية المرأة وحاول التخلص من سطوة الدين ليسهل من التعبير عن كل ما هو غرائزي، ورغم ذلك أدت هذه الحماسة العمياء إلى قتل الفضول والتلاعب بالمسار الصحي وحلول الملل والتعقيد والتكالب نظرا إلى الوفرة، لأن الوفرة ليست بالضرورة أن تؤدي إلى ما يفيد.

وهو ما يؤكد الحقيقة القائلة بأن المجتمع المتدين قد غاب عنه السلام كنتيجة لضياع راحة البال التي اقترنت بالانتهاكات الخفية التي عمدت إلى التصميم دون أن أتحدث معتمدة على التعميم، لكن الشعور بمثل هذه الأمور يتحقق عندما تنتهي حالة الغفلة التي لا مناص من انتهائها مع فقدان القوة أو تغير الظروف.

أما بالنسبة للمجتمع المتحرر، فقد نالت منه المشاكل والتعقيدات وتسلل إليه الملل وانتشرت على أراضيه الكثير من أشكال المجون التي نزلت بالإنسان إلى كل ما هو ممرض ومخيف، وهو ما يمثل طيفا من أطياف الحياة المادية الشرسة التي يعيشها الإنسان.

إنني لا أتحدث عن الخطأ، لأنه وارد، خاصة عندما يقترن بالفضول والحماسة، لكنني أتحدث عن التصميم على الخطأ، التصميم الذي يؤدي إلى الهلاك النفسي في نهاية المطاف، نعم، التصميم الذي يؤدي إلى الهلاك النفسي في نهاية المطاف!

-31-

إن الفتاة التقية قد تسب الفاسقة وقد تحتقرها، لكنها في حقيقة الأمر لا تبالي بها، كما لا تبالي بها الأخرى، لأن الأمر يتعلق بالدواخل والحاجة إلى تحويلها إلى سياق مرئي.

ولهذا من الضروري ألا نحتقر الفرد، لأن الأمر ليس من شأننا، ولا يخصنا بأي شكل من الأشكال، لكننا من المهم أن نحتقر الفعل أو النشاط، وهو ما يمثل المنطق والرزانة.

لكننا لا نري الفسوق بأعيننا، ونحاول أن نراه وأن نحوله إلي أمر مرئي يسهل التعامل معه، ولهذا تختار أذهاننا أشخاصا واضحين ونضعهم بداخل عقولنا، وبصورة تدريجية نبدأ في ممارسة الكره تجاههم، رغم أن ما يستحق الكره هو النشاط نفسه، ومن يستحق أن نركز عليه هو أنفسنا، أنفسنا، فحسب.

ورغم ذلك، من الضروري أن أعترف، بأنني قد ظلمت نفسي كثيرا، عندما سمحت لها بأن تشارك رجلا عجوزا علاقة هوجاء، دون اهتمام بقواعد أو حكمة، وسعيا وراء إرضاء الفضول والتعرف إلى كل ما هو جديد.

إنه أمر منتشر، نعم، ذلك الأمر الذي يخص التعرف على النشاط الجنساني والعاطفي، لكنه يحدث بدرجات. فقد يحدث خارج الإطار المضبوط مع البعض وقد يحدث داخل الإطار السليم مع البعض الآخر، وهو ما يرتبط بالقدرة على ضبط النفس ومدي السعي في طريق الإله والظروف والتغيرات ودرجة التصميم وملاعبات الغريزة وحجم الاختلاط.

وفي نفس الوقت، تكمن المشكلة في الحقيقة الشرسة، تلك الحقيقة التي تخبرنا بأنه من الضروري أن نسعى نحو ضبط النفس وتدريبها وتقبل الأخطاء وعدم التصميم عليها، لأننا إذا اتبعنا أهواءنا باستمرار، نال منا كل ما يسبب الدمار، ورغم ذلك لا مناص من انتظار رحمة الإله، مع الاعتماد عليها كوسيلة للانقطاع لا للاستمرار.

ومن الضروري أن أؤكد على أن التعميم باطل وأن الاختلاف جوهر السياق، فمنا من تكون آثامه ذات صلة بأمور غرائزية ومنا من تكون انتهاكاته مرتبطة بأمور أخري. منا من يرتكب الصغائر ومنا من يصمم على الكبائر، فمن الصعب أن نرصد مثل هذه الأمور، ولا يحق لنا أن نفعل ذلك، لأن الأمر بأكمله يخص الرحمن وحده.

-32-

في الفجر، جاءتني أختي منتحبة، بعد أن تشاجرت مع زوجها السكير اللعين، وقد رحبت بها وحضنتها محاولة أن أمنحها بعض الطمأنينة التي كنت أحتاجها أنا الأخرى.

كنت أعاني من جفاف الروح، كنت أشعر وكأنني مرهقة بصورة لا توصف، لكنني كنت أحاول أن أتماسك وأن أقدم إلى أختي ما يجب تقديمه دون أن ألتفت إلى نفسي أو أن أفصح لها عما يحدث بداخلي.

إننا، نحن البشر. كائنات تتلاعب بنا طاقات داخلية غريبة، تتأرجح أمزجتنا، ترهق عقولنا، ونعتقد أننا قادرون على التقاط اللحظة والاحتفاظ بها، رغم أن عقولنا لا تمتلك القدرة لفعل ذلك، وتسعى نحو تسهيل الإدراك عبر التكيف والتجاوز.

كان وقتا غريبا، فقد استيقظت من نومي مفزوعة، لكن حلول الحزينة قد منحني ما يدعم موقفي بصورة عابرة، وفي نفس الوقت، أخذت أستمع إليها بينما كانت راقدة إلى جانبي فوق سريري، فتذكرت أيام الطفولة، ونالت مني النوستالجيا اللعينة، فأرهقتني وجعلتني أتأرجح بين الكثير من الأمور.

عجزت عن العودة إلى النوم، فتركتها بعد أن قفزت إلى بحره، وقد خرجت إلى الصالة وولجت المطبخ، وبدأت في إعداد القهوة.

جلست أتأمل البناية المقابلة، أخذت أتنقل بذهني بين الكثير من الأمور، واكتشفت، بعد كل هذا الهراء الذي انخرطت فيه،

أنني كنت في حاجة إلى العاطفة، أنني كنت في حاجة إلى حضن دافئ، حضن مشمول بالبركات.

وجدت حسونا في الخارج، أخذت أتأمله محاولة أن أستخلص منه بعض الجمال، ذلك الجمال الذي يساعد العقول على إدراك الراحة والتأمل، ويساعد الروح على الارتقاء والإحساس بالأمان.

وجدت أختي تقف أمامي، لم أعرف كيف جاءتني بهذه الصورة، وقد اقتربت مني محاولة احتضاني، لكنني اكتشفت أن هناك ما يخفي، فقد تحولت إلى كيان مشوه، كيان مزقته الحياة ودمرته العوائق.

نالت مني الصدمة بعد أن كشفت عن وجه دميم، وجه لم يمت إليها بأي شكل من الأشكال، فقد أحسست بوجودها، لكن وجهها بث الاضطراب في الكيان، وقد بدأت تصرخ كالمجنونة واصفة إياي بالفاسقة الصغيرة!

حاصرتني الصدمة، أحسست بانقباض، وإذ بغتة أجد نفسي فوق الأريكة، بعد أن استيقظت من نوم أو من حالة غفلة.

-33-

أجلس في الشرفة، أتأمل المشهد العام، بعد أن تركتني أختي وعادت إلى زوجها كاشفة عن إمكانية إعادة الاتصال، أنظر إلى كل شيء محاطة بالريبة، وأشعر بمشاعر غريبة تتأرجح بين الحزن البسيط والاكتئاب الرهيب.

إن ما نال مني أشد ضراوة مما كنت أتوقع، واختلاس اللحظات العابرة التي ظننت أنها كانت قادرة على منحي السكينة كان وهما، وقد صرت ذابلة العينين من البكاء والسهر.

إن جهازي العصبي الذي وفرت له لقاء طويلا بالنسبة إلى قصيرا بالنسبة إلى الحياة، مع عالم العواطف والجنسانية، ليحقق الإرضاء الذي كانت برمجته تطالبه به باستمرار، يسبني بشراسة، واصفا إياي بالفاسقة الصغيرة، واصفا إياي بما كانت ترddه زوجة الفيلسوف المخدوعة.

الفاسقة الصغيرة، كلمتان كانتا تلاحقاني في كل مكان، في أحلامي، في خيالاتي، في أوقات فراغي، وفي كل سياق كان قادرا على استحضار لحظات شقاوتي أو عبث مراهقتي.

إن العقل يكبت الأمور التي تضايقنا، يخبئها في الأدوار السفلية، ومن الضروري أن ندرك حقيقة أن كل إنسان يخبئ شيئا ما في أعماقه، وربما يخبئ أشياء كثيرة. وليس من الضروري لهذه الأشياء أن تكون ذات صلة بالأخلاق أو العواطف، بل من الممكن أن تكون ذات علاقة بشكوك، أو نقص في الثقة حيال

العمل أو الدراسة، أو تجارب مؤلمة قد مضت، أو صراعات نفسية قد ولت، أو مشاعر قد تجلب الخجل.

إن الأنفس مفعمة بالكثير من الخفايا والصراعات، وليس من الضروري لهذا الأمور أن تعيق الإنسان من التقدم إلى الأمام، لكنها قادرة على إلحاق الأذى بالحياة والتأثير على جودتها، إذا وصلت إلى درجات عليا وإذا تمكنت من الذهن فأرهقته وجعلت المرء حبيس أفكاره.

إنني أشعر بأن دراستي قد أثرت على حياتي بشكل كلي، فصرت أتفلسف باستمرار، رغم أن الكثير من الأمور تحتاج إلى أن نعيشها كما هي دون عبء بالمجهول أو ما يخفي عن العيون.

-34-

فوق سريري أرقد، وفي مستقبلي أتأمل، لكن الماضي يلاحقني محاولا أن يبث الاضطراب في كياني، فالعقل يتذكر اللحظات اللذيذة ويتنقل بين ملاعبات الغريزة، وها أنا أجلس وحيدة، رغم أن هناك ما يلاعبني.

لقد كنت حاملة لصندوق مغلق، كنت أتحرك حاملة إياه في إصرار، كنت أؤجل رغبتي في أن أعرف ما يكمن بداخله حتى يحين الوقت المناسب، لكنني اكتشفت في نهاية المطاف، أنه لم يقدم إلى أي جديد، فقد كان خاويا لا يفيد، وحينها تعالت الصرخات ونظرت إلى نفسي في المرآة، فوجدت كيانا مختلفا وغريبا.

إن البشر يكبتون الكثير من الأمور، يصممون على المضي إلى الأمام، يحاولون أن يكملوا المسيرة، مهما كانت الظروف والمتغيرات، وهو ما يعبر عن طبيعة الحياة، تلك الطبيعة التي تحتاج إلى المواكبة والمسايرة، بهدف التجاوز والمرور.

إن الحياة تحتاج إلي العقل الواعي، ذلك العقل الذي لا يعيش حبيسا لفكرة ما، ولا يؤمن سوي بعظمة الإله، ولا يحلل الأمور باستمرار، فيسمح للنهر بأن ينساب دون انكسار.

فلم يقدر لي أن أفهم الكثير عن حكمة الحياة، ولم تسمح لي التجربة بأن أحصد الكثير، لكن الحصاد يكمن في الإصرار، ذلك الإصرار على استجلاب أجواء التفاؤل والاستقرار.

إن التجربة البشرية داخلية قبل أن تكون خارجية، وعندما نصر علي إضاءة الداخل، فإن هذا الإصرار قد ينعكس بشكل من الأشكال على الخارج، وهو ما يمثل النضج الذي يلحق بالإنسان، عندما يهرم ويدرك أن السعادة تكمن في الإحساس بالأمان، نعم، الإحساس بالأمان الذي لا يمكن أن يتحقق دون السعي نحو راحة البال، تلك الراحة التي لا تجلب سوي بالتقليل من أخطائنا قدر المستطاع والتخلص من الطمع والتكالب وكل ما يسبب الغضب والهراء.

إنني في حاجة إلى النوم، نعم، من الضروري أن أقفز إلي بحر النوم، لأهرب بعيدا عن كل هذه الأفكار.

-35-

العواصف في كل مكان، السماء مظلمة دون عبء أو اهتمام، الأشجار تتأرجح غاضبة وبواعث الاستقرار غائبة. لكن القطة مصممة على الخروج إلى الشرفة.

لم تعبأ القطة بالأجواء، خرجت إلى الشرفة، وقفت تتأمل الاضطراب، وأخذت تتنقل بين أفكارها من أقصي اليمين إلي أقصي اليسار.

ارتطام واصطدام، هلوسة واختلاج، حركة والتفاف، فقد قفزت القطة من الشرفة، قفزت غير عابئة بالأفكار، ونالت منها نهايتها التي كانت من الضروري أن تداهمها.

لكنها قبل تلاشيها، رأت ما لم يكن في الحسبان، رأت فيلسوفها اللعين يبكي في الجحيم، في أتون الجحيم، بعد أن عمد إلى التصميم غير مهتم بالعلامات.

تمت

توضيح

الأفكار المعروضة تخص الشخصيات وحدها. وهو الحال نفسه بالنسبة إلى أعمال الكاتب الروائية القصيرة الأخرى.

العمل الروائي القصير (سيكولوجية الخطيئة والرمزية)

تأملات في: -

الدوغمائي ذو اللحية الحمراء
نباح الكلاب في الباحة الخلفية

لقد حاولت أن أقدم مفهوما جديدا فيما يخص عالمي النفسانية والجنسانية عبر اللجوء إلى مفهوم أطلقت عليه "سيكولوجية الخطيئة"، وقد أدرجته في كتاب "الإيروسية والثاناتوسية" بصورة تجمع بين اللغة الأكاديمية والانسيابية الفكرية. وقد وجدت بعد ذلك أنه من الممكن أن أقدمه بصورة مختلفة معتمدا على اللغة الروائية، وهو ما دفعني إلى الاهتمام بتقديم "الدوغمائي ذو اللحية الحمراء" و"نباح الكلاب في الباحة الخلفية". من المعروف أنه ليس من الضروري أن ترتبط الخطيئة بنشاط جنسي مخالف أو شيء من هذا القبيل، وأنه من الممكن أن تتصل بأنشطة أخري عديدة، وهو ما يثبته الواقع والمنطق. لكنني اهتممت بدراسات الجنسانية وحاولت أن أقدم مفهوم الخطيئة من خلالها بعيدا عن الأنواع الأخرى المتعددة. وفي نفس الوقت، استخدمت ضمير المتكلم في أكثر من عمل من أجل ضخ الحماسة في العروق ومحاولة تقريب الصورة قدر المستطاع، وأتمني أن أكون قد حققت المرغوب. ومن الضروري أن أوكد على أن التعريف الرسمي لسيكولوجية الخطيئة، يتمثل في الدواخل والتأثيرات النفسية المصاحبة للنشاط المخالف والمبني على الانتهاك وإرضاء الفضول مهما كانت العواقب، ومن المهم أن أشير إلى حقيقة أن المخالفة فيما يخص النشاط الجنسي بمثابة الأمر الشائع بين الصغار والمراهقين والكبار، دون تعميم، لأن الفضول يلاعب العقل باستمرار

والأنفس تحتاج إلى تدريب مستمر، ورغم ذلك هناك من يحفظهم الإله، وهناك تدرجات كبيرة فيما يخص هذا الشأن، فمن الناس من يرضي الفضول دون عودة إلا في الإطار الرسمي والمقبول، ومنهم من يصمم على ممارسة الرذيلة، ومنهم من يتوفر له الإطار الرسمي دون تجارب سابقة وهو ما يمثل الأمر العظيم والمحبب والصحي والمتوافق مع الدين. أحب أن أشير إلى حقيقة أن هناك تدرجات شديدة في الممارسة نفسها، فمن الناس من يكتفي بالمقدمات ومنهم من يتجاوزها متبجحا. وأحب أيضا أن أشير إلى الحقيقة التي نعلمها جميعا والتي تتمثل في أن الفائز هو من يرضي عنه الإله.

أتمنى أن أتمكن من التطرق إلى سيكولوجية الخطيئة معتمدا على طريقة أكاديمية محضة في يوم ما، لكن ما يهمني في اللحظة هو أن أتطرق إلى العملين الروائيين السابقين دون أن أكشف عن الرمزية الكاملة مهتما ببعض النقاط المحورية فحسب.

إن الدوغمائي يعبر عن الجزء النفسي الذي يرغب في العربدة، ومن المعروف أن العربدة درجات، لكن الدوغمائي يمثل أقصى صورها الماكرة، حيث أنه مقدم على هيئة رجل يسير بين الناس معتمدا على لحيته لكنه يفعل كل ما يحلو له في الخفاء، وهو أمر موجود في مجتمعنا بكل تأكيد، دون أن نعمد إلى التعميم. أما بالنسبة إلى مساعده عامر، فإنه يمثل الجزء الذي يسعى نحو التخلص من الأخطاء والاهتمام بالسعي في طريق الإله، وفي نفس الوقت لا يمثل الصورة النقية التامة التي من الممكن أن نجدها في شخص لم يقترب من طريق العربدة قط. لكن المنطقية تخبرنا بأنه من الطبيعي أن نجد شخصية عامر

متأثرة بشخصية ثابت، لأن تعامله معه قادر علي منحه بعض صفاته بكل تأكيد.

إن الدوغمائي يمثل الجزء الهارب، الجزء الذي مل العمل والسعي، ورغب في اللهو والعربدة، بهدف التخلص من التفكير وبهدف الاهتمام بكل ما يجلب المحو والنسيان. لكنه من الضروري أن أوضح أن اسمه نابع من شخصيته التي تهتم برأيها غير عابئة بأي رأي آخر. وفي نفس الوقت، فإنها تجمع بين الدوغمائية والفسوق، أي أن الشخصية قد صممت على الفسوق كعنصر من العناصر الأخرى العديدة التي صممت على التفكير فيها بصورة ما دون الاهتمام بالصور الأخرى التي يقدمها الآخرون.

وبالنسبة إلى الجزء السيكولوجي، فإن العمل يوضح أن السيد ثابت مدرك لتصرفاته، ويعلم جيدا أنه قد ظلم نفسه بتصميمه على أخطائه، حيث أنه من الممكن للإنسان أن يخطئ، لأنها طبيعته، لكنه مطالب بتقويم النفس والتقليل من عدد أخطائه، وهو ما يمثل الصواب.

لكن الغريب في شخصيته، يتمثل في حالة اللامبالاة الخارجية التي كان يعيشها رغم الدواخل المضطربة التي تمثل الرذيلة جزءا من منظومة الأسباب التي أدت إلى اختلاجها.

وهي حالة موجودة ومن الممكن رصدها رغم غرابتها، حيث أنه من الممكن للإنسان أن يصمم على أفعاله نظرا للذة التي تقترن بها، لكنه من المعروف أن حالة الغفلة التي يعيشها، لا مناص من مفارقتها في يوم ما، وحينها يصبح الوضع كارثيا.

إن مشكلة العربدة تتمثل في قدرتها على إقحام المرء في بيئة مفعمة بالمشاكل فيما يخص الإطار غير المرئي، حيث أن الشخص في هذه الحالة، يفقد الروحانية ويقلل من درجاته، وفي نفس الوقت يعاني من حرمان حسي، حرمان حسي وصل إليه بنفسه وبتصرفاته، فيتنقل بين عناصر المادة دون عبء بالعاطفة، رغم أن العاطفة تكمن بداخلها لذة من نوع مختلف، ولهذا يصبح أسيرا لنوع محدد من اللذة.

فعندما صمم الدوغمائي على المتع الجسدية والتخديرية البحتة، عجز عن الوصول إلى الروحانية ولم يتمكن من تشكيل علاقة عاطفية صحية مع امرأة، وهو ما يمثل العواقب المنطقية لأفعاله. إنني لا أتحدث عن المضي إلى الأمام، فكل أمر سيمضي وسيتقدم، لكنني أتحدث عن الدواخل والإحساس بالأمان وراحة البال.

وبالنسبة إلى "نباح الكلاب"، فإن هذا العمل يهتم بالعقل الباطن، ويسعى نحو رصد بعض الأمور التي تلاعبه، والتي تمثل التجارب الجنسية جزءا رئيسيا منها. إن الدور الثالث الذي يسكنه البطل بمثابة العقل الواعي الذي يعلو العقل الباطن والعقل اللاواعي، ومن الضروري أن أشير إلى حقيقة أن الصراع بين الفضيلة والرذيلة يمثل جزءا رئيسيا من أجزاء العمل.

أما بالنسبة إلى الأحلام التي تراوده، فهي تعبر عن الكثير من الأمور والتحديات التي تلاعب المرء عبر حياته، حيث أنها ترصد العبء الذي قد تمثله الزوجة بالنسبة إلى البعض في سن ما، وتعبر عن فكرة المرأة الأخرى التي قد تلاعب المتزوج معتمدة

على الإغراء، وتجسد المخاوف حيال الكبر وضعف القدرة الجنسية وغياب العواطف والحياة وطرقها المتعددة بوجه عام.

إن الذكر يكتشف مع الوقت أهمية العواطف، خاصة بعد أن تقل وطأة الغريزة الجنسية أو بعد أن يملها، ولهذا قد يسعى إلى تكوين علاقة معتمدا على التوازن بين الشقين، وهو الأمر نفسه بالنسبة إلى الأنثى لكن ضمن إطار آخر.

ولهذا من الممكن أن نلاحظ أن البطل قد اكتشف أن المصدر الذي كان يمنحه العاطفة الحقيقة قد اختفي، مما أدي إلى اضطرابه وتوتره، ورغم ذلك، فإن العمل يشير إلى أن الأمر بأكمله بمثابة الخدعة، لأن العلاقة الحقيقية تتمثل في علاقة الإنسان بالإله ومحاولة الإنسان أن يسعي في طريق الإله.

إن العمل يؤكد على أن الإنسان خطاء، وأن نجاته تكمن في عدم التصميم على الخطأ، وأنه من المنطقي أن يعمد إلى توظيف عواطفه ضمن نطاق صحي مشمول برضا الإله وأن يتقبل العلاقة بتغيراتها وتوتراتها دون تمرد، بينما يمنح الأولوية لعلاقته بالإله.

يوضح أن الرحمة تساعد من ابتعد على أن يقترب، وتشجع من اقترب على أن يزيد من اقترابه، مدعومة بفكرة التدرج. وفي نفس الوقت يؤكد على أن الرحمة تقتضي الشمول وأن العدالة تقتضي التدرج. إن هذا العمل مفعم بالكثير من العناصر الرمزية، كالنباح والأمواج ومانويلا وغيرها من العناصر، ومن الضروري ألا أكشف عنها ضمن إطار محدد، حفاظا على رونق الفكرة وبهدف منح القارئ الكثير من التصورات التي قد تثير حواسه عندما تلاعب عقله.

دار عرفان للنشر





لم تكن القطة تعرف شيئا عن الفيلسوف،
لكنها، بمجرد أن عرفت، لم تجد سوي الجحيم،
ورغم ذلك، فإن تأثيراته لم تنل منها
سوي في نهاية المطاف!

دار عرفان للنشر